

مُرَاتِبُ أَنْبَاءِ الْقُرَى

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ
عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّعْمِيِّ

الإصدارات البرمجية العلمية

مِن أَنْبَاءِ الْقُرَى

مُقَدِّمَةٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهِدَاةَهُ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْمُتَحَدِّثَ عَنِ تَارِيخِ الْأُمَّمِ الْمُتَعَلِّقِ بِبِقَائِهَا وَإِهْلَاكِهَا، وَعَنْ تَارِيخِ الدُّوَلِ الْمُتَعَلِّقِ بِقِيَامِهَا وَسُقُوطِهَا، وَأَسْبَابِ ذَلِكَ، وَأَخِذِ الْعِبْرَةِ وَالْعِظَةِ، لَا يَجِدُ أْبْلَغَ وَلَا أَوْجَزَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: **(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٨٢) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ).**

فَالْعَاقِلُ مَنْ يَسْتَفِيدُ مِنْ مَدْرَسَةِ التَّارِيخِ، فَيَنْظُرُ بِتَأْمُلٍ فِي أَحْوَالِ الْأُمَّمِ وَالدُّوَلِ، فَيَتَفَكَّرُ فِي الَّتِي نَجَتْ: كَيْفَ نَجَتْ، وَفِي الَّتِي هَلَكَتْ: كَيْفَ هَلَكَتْ؛ لِيَأْخُذَ بِأَسْبَابِ النِّجَاةِ، وَيَتَجَنَّبَ أَسْبَابَ الْهَلَاكِ.

فَكَمْ أُمَّةٌ أَهْلِكَتْ بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ! وَكَمْ دَوْلَةٌ سَقَطَتْ بِسَبَبِ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ!

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: **(إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ، وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ، وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً).**

وَكَذَلِكَ كَمْ أُمَّةٌ عُمِرَتْ وَدَوْلَةٌ مُكِنَتْ، لَمَّا أَخَذَتْ بِأَسْبَابِ الْبَقَاءِ وَالتَّمْكِينِ.

فَصَلِّ:

وَالْمُقَدِّمَةُ الْجَامِعَةُ: أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ الْعَالِيَةَ فِي الْأُمَّمِ وَالدُّوَلِ - بَقَاءً وَزَوَالًا - تَجْرِي

عَلَى الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الدِّينِيَّةِ، وَهِيَ الْقَاعِدَةُ وَالْأَسَاسُ، ثُمَّ الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ

إِعْدَادِ الْقُوَّةِ فِي مُخْتَلِفِ شُؤْنِ الْحَيَاةِ.

وَتَحْقِيقِ الْأَسْبَابِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ يَكُونُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

إِحْدَاهُنَّ: وُجُودِيَّةٌ، وَهِيَ جَلْبُ أَسْبَابِ التَّمَكِينِ.

وَالثَّانِيَّةُ: عَدَمِيَّةٌ، وَهِيَ دَرءُ مَعْوَقَاتِ التَّمَكِينِ.

وَالْمَطْلُوبُ: تَوْظِيفُ كُلِّ الْقُوَى الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَضْمَنُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - الْقِيَامَ بِهَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ كَمَا يَنْبَغِي، مِثْلَ الْعِلْمِ وَالِدَّعْوَةِ وَالْإِصْلَاحِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمِثْلَ وَضْعِ الْأَجْهَرَةِ الْأَمْنِيَّةِ، وَالخُطَطِ وَالْأَنْظِمَةِ الْمَدْرُوسَةِ الْمُطَبَّقَةِ.

فَصَلِّ:

إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَقَدْ أَجَارَهَا اللَّهُ مِنَ الْاِسْتِنْصَالِ وَالْاِهْلَاكِ الْعَامِّ، كَمَا أَجَارَهَا مِنَ الْاِجْتِمَاعِ عَلَى الْكُفْرِ أَوْ عَلَى الضَّلَالَةِ.

وَأَمَّا الْعَذَابُ وَالْعِقَابُ الْفَرْدِيُّ وَالْجَمَاعِيُّ الْخَاصُّ، فَوَاقِعٌ فِيهَا لَا مَحَالَةَ؛ لِوُجُودِ الشَّرِّ وَالْأَشْرَارِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنْهَلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ إِذَا ظَهَرَ الْخَبَثُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: غَرِيبٌ. وَلَهُ شَوَاهِدٌ، قَالَ ابْنُ حَجْرٍ: فِي أَسَانِيدِهَا مَقَالٌ غَالِبًا، لَكِنْ يَدُلُّ مَجْمُوعُهَا عَلَى أَنَّ لِدَلِّكَ أَضْلًا.

وَفِي حَدِيثِ زَيْنَبَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ صُحَّارِ الْعَبْدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخَسَفَ بِقَبَائِلَ، فَيُقَالُ: مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي فُلَانٍ؟». قَالَ: فَعَرَفْتُ حِينَ قَالَ: «قَبَائِلَ» أَنَّهَا الْعَرَبُ؛ لِأَنَّ الْعَجَمَ تُنْسَبُ إِلَى قُرَاهَا. قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبْرَانِيُّ، وَأَبُو يَعْلَى، وَالْبَرْزَارِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ. وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ ابْنُ حَجْرٍ.

وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مِنْكُمَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأَعْطَيْتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ

اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَرَوَى عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رُكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَرَوَى أَحْمَدُ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «فَلَا يَزَالُ الْهَرَجُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: لَيْسَ هُوَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ السِّتَّةِ، وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

وَرَوَى أَحْمَدُ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (وَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ، فَإِذَا وُضِعَ السِّيفُ فِي أُمَّتِي، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ). قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ السِّتَّةِ، وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِمَّنْ فَوْقَكُمْ)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، (أَوْ يَلْبِسُكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ -». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرَّجْمَ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْغَرَقَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَبَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ اثْنَيْنِ: الْقَتْلَ، وَالْهَرْجَ). رَوَاهُ ابْنُ مَرْذَوَيْهِ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: (عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) يَعْنِي: الرَّجْمَ. (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) يَعْنِي: الدَّخْفَ.

وَفِي حَدِيثِ خَالِدِ الْخَزَاعِيِّ: (سَأَلْتُ اللَّهَ أَلَا يُصِيبُكُمْ بِعَذَابٍ أَصَابَ بِهِ مَنْ قَبْلَكُمْ، فَأَعْطَانِيهَا). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْذَوَيْهِ.

وَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (سَأَلْتُ رَبِّي، عَزَّ وَجَلَّ، أَلَا يُهْلِكُنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَنَا، فَأَعْطَانِيهَا). رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ: بِمَا عَذَّبَ بِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَهُمْ: الْغَرَقُ كَقَوْمِ نُوحٍ وَفِرْعَوْنَ، وَالْهَلَاكُ بِالرِّيْحِ كَعَادٍ، وَالْدَخْفُ كَقَوْمِ لُوطٍ وَقَارُونَ، وَالصَّيْحَةُ كَثَمُودَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ، وَالرَّجْمُ كَأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا عَذَّبَتْ بِهِ الْأُمَّةَ عُمُومًا. فَضَلَّ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَكَانَ عَذَابُ كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ ذُنُوبِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ؛ فَعَذَّبَ قَوْمَ عَادٍ بِالرِّيْحِ الشَّدِيدَةِ الْعَاتِيَةِ الَّتِي لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ؛ وَعَذَّبَ قَوْمَ لُوطٍ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يُعَذَّبْ بِهَا أُمَّةٌ غَيْرُهُمْ؛ فَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ الْهَلَاكِ، وَالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَطَمَسِ الْأَبْصَارِ، وَقَلَبِ دِيَارِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ بِأَنْ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَالْخَسْفِ بِهِمْ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ. وَعَذَّبَ قَوْمَ شُعَيْبٍ

بِالنَّارِ الَّتِي أَحْرَقْتَهُمْ، وَأَحْرَقْتَ تِلْكَ الْأَمْوَالَ الَّتِي اِكْتَسَبُوهَا بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ،
 وَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكَهُمْ بِالصَّيْحَةِ فَمَاتُوا فِي الْحَالِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا عَذَابَهُ لِهَؤُلَاءِ
 وَذُنُوبِهِمْ مَعَ الشِّرْكِ عَقْرُ النَّاقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ آيَةً لَهُمْ، فَمَنْ انْتَهَكَ مَحَارِمَ
 اللَّهِ، وَاسْتَخَفَّ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَعَقَرَ عِبَادَةَ، وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ: كَانَ أَشَدَّ عَذَابًا.
 وَمَنْ اغْتَبَرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَمَا يُعَاقَبُ بِهِ مَنْ يَسْعَى فِي الْأَرْضِ
 بِالْفُسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَأَقَامَ الْفِتْنَ وَاسْتَهَانَ بِحُرْمَاتِ اللَّهِ: عَلِمَ أَنَّ
 النِّجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ». انْتَهَى.

لَقَدْ شَهِدَ التَّارِيخُ مَصَارِعَ أُمَّمٍ، وَزَوَالَ حَضَارَاتٍ وَإِمْبِرَاطُورِيَّاتٍ، وَسُقُوطَ دُولٍ
 وَمَمَالِكٍ وَإِمَارَاتٍ، فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، فِي الْعِرَاقِ وَمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْيَمَنِ، وَالْجَزِيرَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ قَامَتْ لَهُمْ قَائِمَةٌ عَلَى أَرْضِ الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ.
 فَيَجْدُرُ دِرَاسَةُ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، وَعَوَامِلِ الْبَقَاءِ وَالزَّوَالِ، وَعَوَامِلِ التَّمَكِينِ
 وَالسُّقُوطِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا.

مَعَ الْإِيمَانِ وَالتَّسْلِيمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **(لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)**، وَقَوْلِهِ: **(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ
 وَمِنْ بَعْدُ)**.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «هَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا سَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي؟ فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبْوِينَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ؟ وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ؟ وَمَا الَّذِي سَلَطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمٍ عَادٍ؟ وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ؟ وَمَا الَّذِي رَفَعَ قَرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ؟ وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظَّلْلِ؟ وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ؟ وَمَا الَّذِي حَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ؟ وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا؟ وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يَسَ بِالصَّيْحَةِ حَتَّى حَمَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟ وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ، وَسَبُّوا الذَّرِيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَأَحْرَقُوا الدِّيَارَ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً فَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَنْبِيرًا؟ وَمَا الَّذِي سَلَطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، مَرَّةً بِالْقَتْلِ وَالسَّبِي وَخَرَابِ الْبِلَادِ، وَمَرَّةً بِجَوْرِ الْمُلُوكِ، وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

(لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُصُ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟! فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ، مَا أَهْوَنُ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ! بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى».

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ، مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا فِيهِمْ يَوْمٌ يُؤَمِّدُ أَنْسَ صَالِحُونَ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: كَيْفَ يُصْنَعُ بِأَوْلِيكَ؟ قَالَ: يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادَيْنِ، رِجَالُ أَحَدِهِمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ. وَفِي مَرَاثِيلِ الْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَنَفِهِ، مَا لَمْ يَمَالِي قُرَاؤُهَا أَمْرَاءَهَا، وَمَا لَمْ يُزَكِّ صَلْحَاؤُهَا فُجَّارَهَا، وَمَا لَمْ يُهِنْ خِيَارَهَا أَشْرَارَهَا، فَإِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ رَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرَتُهُمْ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ».

وَفِي الْمُسْنَدِ، مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ، كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قِصْعَتِهَا، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قَلَّةِ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غَنَاءٌ كَغَنَاءِ السَّيْلِ، تُنَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ، قَالُوا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ». قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: إِسْنَادُ أَحْمَدَ جَيِّدٌ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: إِذَا ظَهَرَ الزَّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، أَذِنَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهَلَاكِهَا.

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: كُنْتُ عَاشِرَ عَشْرَةِ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسُ خِصَالٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا بِهَا إِلَّا ابْتَلُوا بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَا نَقَصَ قَوْمُ الْمُكْيَالِ

وَالْمِيزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُنُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، فَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَا خَفَرَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أُمَّتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمُ بَيْنَهُمْ». قَالَ الْبُوصَيْرِيُّ: رَوَاهُ الْحَاكِمُ ... قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، هَذَا حَدِيثٌ صَالِحٌ لِلْعَمَلِ بِهِ.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ إِذَا عَمِلَ الْعَامِلُ فِيهِمْ بِالْخَطِيئَةِ جَاءَهُ النَّاهِي تَغْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ بِالْأَمْسِ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ذَلِكَ مِنْهُمْ، ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ». حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ، وَأَشَارَ إِلَى اخْتِلَافِ وَصْلِهِ وَإِرْسَالِهِ، وَلَهُ شَاهِدٌ عَنْ أَبِي مُوسَى يَرْفَعُهُ. قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

وَذَكَرَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ، قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مَلَكَيْنِ إِلَى قَرْيَةٍ، أَنْ دَمَّرَاهَا بِمَنْ فِيهَا، فَوَجَدَا رَجُلًا قَائِمًا يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، فَقَالَا: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا عَبْدَكَ فُلَانًا يُصَلِّي، فَقَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : دَمَّرَاهَا وَدَمَّرَاهُ مَعَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهَهُ فِي قَطْ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، هُوَ وَرَجُلٌ آخَرُ،

فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، حَدِّثِينَا عَنِ الزَّلْزَلَةِ، فَقَالَتْ: إِذَا اسْتَبَاحُوا الزَّنَا، وَشَرِبُوا الْخَمْرَ، وَضَرَبُوا بِالْمَعَارِيفِ، غَارَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي سَمَائِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: تَزَلْزِلِي بِهِمْ، فَإِنْ تَابُوا وَنَزَعُوا، وَإِلَّا هَدَمَهَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَعَذَابًا لَهُمْ؟ قَالَتْ: بَلَى، مَوْعِظَةٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَكَالًا وَعَذَابًا وَسُخْطًا عَلَى الْكَافِرِينَ، فَقَالَ أَنَسٌ: مَا سَمِعْتُ حَدِيثًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنِّْي بِهَذَا الْحَدِيثِ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ صَفِيَّةَ، قَالَتْ: زُلْزَلَتِ الْمَدِينَةُ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا هَذَا؟ وَمَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ، لِيُنَّ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْأُمَّصَارِ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيْءٌ يُعَاتِبُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ الْعِبَادَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالْدِينِ وَالذَّرْهِمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعَيْنَةِ، وَتَبِعُوا أَدْنَابَ الْبَقْرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً لَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ الْفِتْنَةَ وَاللَّهُ مَا هِيَ إِلَّا عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى النَّاسِ. وَنَظَرَ بَعْضُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَا يَصْنَعُ بِهِمْ بُخْتَنَصْرُ، فَقَالَ: بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا، سَلَّطْتَ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَعْرِفُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا.

وَقَالَ بُخْتَنَصْرُ لِدَانِيَالٍ: مَا الَّذِي سَلَّطَنِي عَلَى قَوْمِكَ؟ قَالَ: عِظْمُ خَطِيئَتِكَ، وَظُلْمُ قَوْمِي أَنْفُسَهُمْ.

وَذَكَرَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: قَرَأْتُ فِي الْحِكْمَةِ: يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - -: «أَنَا اللَّهُ، مَالِكُ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَمَنْ

عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، وَلَكِنْ تَوَبُّوا إِلَيَّ
أَعْطِفُهُمْ عَلَيْكُمْ».

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، أَنْتَ فِي السَّمَاءِ
وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا عَلَامَةٌ غَضَبِكَ مِنْ رِضَاكَ؟ قَالَ: «إِذَا اسْتَعْمَلْتَ عَلَيْكُمْ
خِيَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ رِضَائِي عَنْكُمْ، وَإِذَا اسْتَعْمَلْتَ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ
سُخْطِي عَلَيْكُمْ».

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو
بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَدُلُّونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ
مَوْضِعِهَا، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا
اهْتَدَيْتُمْ)، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا
رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ - وَفِي لَفْظٍ: إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ - أَوْشَكَ أَنْ
يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ». قَالَ الْبِرْمَزِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: تُوَشِكُ الْقُرَى أَنْ تُخْرَبَ وَهِيَ عَامِرَةٌ،
قِيلَ: وَكَيْفَ تُخْرَبُ وَهِيَ عَامِرَةٌ؟ قَالَ: إِذَا عَلَا فُجَّارُهَا أَبْرَارُهَا، وَسَادَ الْقَبِيلَةَ
مُنَافِقُوهَا». انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ.

فَصَلِّ:

قَالَ تَعَالَى: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَبَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

وَقَالَ تَعَالَى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنْ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

وَقَالَ تَعَالَى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) (٦١) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِنُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).

وَقَالَ تَعَالَى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

فَصَلِّ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شُجَاعَ بَنٍ وَهَبِ أَخَا بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ إِلَى الْمُؤَذَّرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرِ الْعَسَانِيِّ صَاحِبِ دِمَشْقَ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَكَتَبَ مَعَهُ: سَلَامٌ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَأَمَنَ بِهِ، وَأَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَبْقَى لَكَ مُلْكُكَ، فَقَدِمَ شُجَاعُ بْنُ وَهَبٍ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَمَنْ يَنْتَزِعُ مُلْكِي؟ إِنِّي سَأَسِيرُ إِلَيْهِ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ خُذَافَةَ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَرْزَقَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: مَرْزَقَ اللَّهُ مُلْكَهُ. وَأَصْلُهُ فِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: «وَلَمَّا أَتَى كِسْرَى بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرْزَقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يُمَرْزَقُ مُلْكُهُ، وَحَفِظْنَا أَنْ

قَيْصَرَ أَكْرَمَ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَضَعَهُ فِي مِسْكٍ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : نُبِتَ مُلْكُهُ».

وَقَالَ ابْنُ حَجْرٍ: وَقِيلَ: الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ قَيْصَرَ بَقِيَ مُلْكُهُ، وَإِنَّمَا اِرْتَفَعَ مِنَ الشَّامِ
وَمَا وَالْأَهَاءِ، وَكِسْرَى ذَهَبَ مُلْكُهُ أَضْلًا وَرَأْسًا: أَنَّ قَيْصَرَ لَمَّا جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبَّلَهُ وَكَادَ أَنْ يُسَلِّمَ كَمَا مَضَى بَسْطُ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ،
وَكَسْرَى لَمَّا أَتَاهُ كِتَابُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرْقَهُ.

قَالَ: فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ ابْنَهُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ قَتَلَ إِخْوَتَهُ حَتَّى أَفْضَى الْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى تَأْمِيرِ
الْمَرْأَةِ، فَجَرَّ ذَلِكَ إِلَى ذَهَابِ مُلْكِهِمْ، وَمُزِقُوا كَمَا دَعَا بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - .

وَقَالَ سَيْفُ الدِّينِ فُلَيْحُ الْمَنْصُورِيُّ: أَرْسَلَنِي الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ قَلَاوُونَ إِلَى مَلِكِ
الْعَرَبِ بِهَدِيَّةٍ، فَأَرْسَلَنِي مَلِكُ الْعَرَبِ إِلَى مَلِكِ الْفَرَنْجِ فِي شَفَاعَةٍ فَقَبِلَهَا، وَعَرَضَ
عَلَيَّ الْإِقَامَةَ عِنْدَهُ فَاْمْتَنَعْتُ، فَقَالَ لِي: لِأَتَحَفِّتَكَ بِتُحْفَةٍ سَنِيَّةٍ، فَأَخْرَجَ لِي صُنْدُوقًا
مُصَفَّحًا بِذَهَبٍ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مِقْلَمَةً ذَهَبٍ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا كِتَابًا قَدْ زَالَتْ أَكْثَرُ حُرُوفِهِ،
وَقَدْ التَّصَقَّتْ عَلَيْهِ خِرْقَةٌ حَرِيرٍ، فَقَالَ: هَذَا كِتَابُ نَبِيِّكُمْ إِلَى جَدِّي قَيْصَرَ، مَا زِلْنَا
نَتَوَارَثُهُ إِلَى الْآنِ، وَأَوْصَانَا آبَاؤُنَا، أَنَّهُ مَا دَامَ هَذَا الْكِتَابُ عِنْدَنَا لَا يَزَالُ الْمَلِكُ فِيْنَا،
فَنَحْنُ نَحْفَظُهُ غَايَةَ الْحِفْظِ، وَنُعْظِمُهُ وَنَكْتُمُهُ عَنِ النَّصَارَى؛ لِيَدُومَ الْمَلِكُ فِيْنَا.
انْتَهَى.

فَأِكْرَامُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَذَلِكَ بِاحْتِرَامِ أَحْكَامِهِمَا وَأَدَابِهِمَا، وَتَنْفِيذِ أَوْامِرِهِمَا وَنَوَاهِيهِمَا،
مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ التَّمَكِينِ، وَنَقِيضُ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ التَّرْتُّحِ وَالْإِنْهِيَارِ،
وَعَوَامِلِ الْإِنْحِطَاطِ وَالْإِنْجِلَالِ.

فَضْلٌ:

رُويَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: نَحْنُ قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ، وَإِذَا أَرَدْنَا العِزَّةَ بِغَيْرِهِ أَذَلَّنَا اللهُ.

وَعَنِ الرَّهْرِيِّ، قَالَ: كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَلَغَ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ عِنْدَهُ فِي وَفْدٍ مِنْ قُرَيْشٍ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ العَاصِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مَلِكٌ مِنْ قَحْطَانَ، فَغَضِبَ مُعَاوِيَةُ، فَقَامَ فَأَنذَنِي عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِنْكُمْ يَتَحَدَّثُونَ أَحَادِيثَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَا تُؤَثِّرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَأُولَئِكَ جُهَاكُمُ، فَإِيَّاكُمْ وَالْأَمَانِيَّ الَّتِي تُضِلُّ أَهْلَهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي

قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ، إِلَّا كَبَهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: الخِلافةَ لَمْ تَزَلْ فِي قُرَيْشٍ وَالنَّاسِ فِي طَاعَتِهِمْ، إِلَى أَنْ اسْتَخَفُّوا بِأَمْرِ الدِّينِ، فَضَعُفَ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَى، إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنَ الخِلافةِ سِوَى اسْمِهَا المُجَرَّدِ فِي بَعْضِ الأَقْطَارِ دُونَ أَكْثَرِهَا.

وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ نَظِيرُ مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ، ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي الكِتَابِ الكَبِيرِ، فَذَكَرَ قِصَّةَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَبَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ، وَفِيهَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَإِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ مَا أَطَاعُوا اللهُ وَاسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِهِ.

وَعِنْدَ أَحْمَدَ وَأَبِي يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الأَمْرِ مَا لَمْ تُحَدِّثُوا، فَإِذَا غَيَّرْتُمْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى القَضِيبُ. وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَثْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ عَمِّ أَبِيهِ ... إلخ ... وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ مُرْسَلِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، أَخْرَجَهُ الشَّافِعِيُّ وَالبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ إِلَى عَطَاءٍ، وَلَفْظُهُ: قَالَ لِقُرَيْشٍ: أَنْتُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ مَا كُنْتُمْ عَلَى الحَقِّ، إِلَّا أَنْ تَعْدِلُوا عَنْهُ، فَتُلْحُونَ كَمَا تُلْحَى

هَذِهِ الْجَرِيدَةُ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ زِي مَخْبَرٍ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي حَمِيرٍ، فَذَرَعَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ وَصَيَّرَهُ فِي قُرَيْشٍ، وَسَيَعُودُ إِلَيْهِمْ». وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ، وَهُوَ شَاهِدٌ قَوِيٌّ لِحَدِيثِ الْقَحْطَانِيِّ؛ فَإِنَّ حَمِيرَ يَرْجِعُ نَسَبُهَا إِلَى قَحْطَانَ، وَبِهِ يَقْوَى أَنَّ مَفْهُومَ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ مَا أَقَامُوا الدِّينَ، أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُقِيمُوا الدِّينَ خَرَجَ الْأَمْرُ عَنْهُمْ.

فَضْلٌ:

أَخْرَجَ عَبْدُ بَنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: مَلَكَ الْأَرْضَ مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ، فَالْمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، وَذُو الْقَرْنَيْنِ، وَالْكَافِرَانِ: بُخْتَنَصْرُ، وَنُمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ، لَمْ يَمْلِكْهَا غَيْرُهُمْ.

سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قَالَ تَعَالَى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) (٦١) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ).

فَسُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَرِثَ الْمُلْكَ وَالذُّبُورَةَ مِنْ أَبِيهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الصَّوَامِ الْقَوَامِ، فَهِيَ أَسْرَةُ دِينَ وَصَلَاحٍ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ لَا يَمْضِي سَاعَةٌ مِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ إِلَّا وَأَهْلُ بَيْتِ دَاوُدَ فِي عِبَادَةٍ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَكَانَ مِنْ بَرَكَاتِهِ هَذَا التَّدْيِينِ أَنْ وَهَبَ اللَّهُ لِسُلَيْمَانَ - الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) - مُلْكًا عَظِيمًا، وَأَعْطَاهُ مَقَوْمَاتِ التَّمْكِينِ، أَهْمُهَا وَأَكْبَرُهَا وَأَسَاسُهَا الْمُقَوْمُ الدِّينِي،

حَتَّى ظَهَرَ بِوُضُوحٍ فِي خِطَابِهِ، قَالَ تَعَالَى: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي

عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ مَلَكَ سَبَأٍ: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٩٢) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١٠٣) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ). وَهَذَا الْمُقَوِّمُ الدِّينِيُّ أَثْرُ الْعِلْمِ وَالْوَصِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)، وَقَالَ تَعَالَى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ). فَالْحُكْمُ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَادِلَةِ، وَالتَّخَلُّصُ مِنْ هَوَى النَّفْسِ مِنْ أَكْبَرِ مُقَوِّمَاتِ التَّمَكِينِ.

ذُو الْقَرْنَيْنِ:

قَالَ تَعَالَى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٣٨) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٤٨) فَاتَّبِعْ سَبَبًا). لَقَدْ أَخَذَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي قِيَادَتِهِ الرَّاشِدَةِ، وَعَمِلَ بِأَسْبَابِ التَّمَكِينِ فِعْلًا وَتَرْكًا.

وَعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا وَسَأَلُوهُ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ: أَنْبِيَاءُ كَانَ؟ قَالَ: كَانَ عَبْدًا صَالِحًا، أَحَبَّ اللَّهُ، فَأَحَبَّهُ اللَّهُ، وَنَاصَحَ اللَّهُ فَنَصَحَهُ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَوْلُهُ: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ)؛ أَي: أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا مُتَمَكِّنًا، فِيهِ لَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكَ، مِنَ التَّمَكِينِ وَالْجُنُودِ، وَالْآتِ الْحَرْبِ وَالْحِصَارَاتِ؛ وَلِهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ مِنَ الْأَرْضِ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْمُلُوكُ الْعِبَادِ، وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ، مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنِي الشَّمْسِ مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا.

وَقَالَ: هَكَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ، يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَسْبَابَ، أَي: الطُّرُقَ وَالْوَسَائِلَ إِلَى فَتْحِ الْأَقَالِيمِ وَالرَّسَاتِيقِ وَالْبِلَادِ وَالْأَرْضِي، وَكَسَّرِ الْأَعْدَاءَ، وَكَبَّتِ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَإِذْلالِ أَهْلِ الشِّرْكِ، قَدْ أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ سَبَبًا. انْتَهَى.

وَقَالَ تَعَالَى: **(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا (٧٨) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا).**

سِيَّاسَةٌ صَدِيقَةٌ، وَرُؤْيَا سَلِيمَةٌ، تَقْضِي بِمُعَادَاةِ الْكَافِرِينَ وَالْأَشْرَارِ، وَمُؤَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَبْرَارِ.

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) (٤٩) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٥٩) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٦٩) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٧٩) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي ...).

قِيَادَةٌ وَعَايَةٌ، تَعْمَلُ عَلَىٰ حَبْسِ الْمُفْسِدِينَ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ، وَالتَّخْلُقِ بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ وَالْعُدُوةِ الْحَسَنَةِ. **(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي)**، فَأَيْنَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ الْحَكِيمَةُ مِنْ عِبَارَاتِ الرُّعُونَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: **(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)**، تَعَصَّبُ وَإِعْجَابٌ وَغُرُورٌ وَكَذِبٌ وَاسْتِحْقَافٌ بِقَوْمِهِ، فَمَا عَاقِبَتُهُ؟ قَالَ تَعَالَى: **(فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)**. وَقَالَ تَعَالَى عَنْ قَارُونَ: **(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي)**، قَالَ تَعَالَى: **(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)**.

قَالَ تَعَالَى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ).

قَالَ قَتَادَةُ: كُنَّا نَحَدِّثُ أَنَّهُ مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ: نُمْرُودُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَلِكٍ تَجَبَّرَ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ صَاحِبُ الصَّرْحِ بِبَابِلَ.

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ: فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعُوضَةً، فَدَخَلَتْ فِي مَنْخَرِهِ، فَمَكَثَتْ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِالْمَطَارِقِ، وَأَرْحَمُ النَّاسِ بِهِ مَنْ جَمَعَ يَدَيْهِ وَضَرَبَ بِهِمَا رَأْسَهُ، وَكَانَ جَبَّارًا أَرْبَعِمِائَةَ عَامٍ، فَعَذَّبَهُ اللَّهُ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ كَمُلْكِهِ، وَأَمَاتَهُ اللَّهُ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى صَرْحًا إِلَى السَّمَاءِ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ:

(فَأَنى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ).

بُخْتَنَصَّرُ:

فِي تَفْسِيرِ الْبَعْوِيِّ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: **(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا...)** (الآيات).

إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا اعْتَدُوا وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَلِكًا فَارِسَ «بُخْتَنَصَّرَ»، وَكَانَ اللَّهُ مَلَكُهُ سَبْعِمِائَةَ سَنَةٍ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَحَاصَرَهَا وَفَتَحَهَا، وَقَتَلَ عَلَى دَمِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ سَبَى أَهْلَهَا وَالْأَبْنَاءَ، وَسَلَبَ حُلِيِّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ هَلَاكَ بُخْتَنَصَّرَ، انْبَعَثَ، فَقَالَ لِمَنْ فِي يَدِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَرَأَيْتُمْ هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي خَرَّبْتُهُ وَالنَّاسَ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ مِنْهُمْ؟ وَمَا هَذَا الْبَيْتُ؟ قَالُوا: هَذَا بَيْتُ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُهُ، كَانُوا مِنْ ذُرَارِي الْأَنْبِيَاءِ، فَظَلَمُوا وَتَعَدَّوْا، فَسَلَّطْتَ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَكَانَ رَبُّهُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ يُكْرِمُهُمْ وَيُعِزُّهُمْ، فَلَمَّا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ، فَاسْتَكْبَرَ وَظَنَّ أَنَّهُ بِجَبْرُوتِهِ فَعَلَّ ذَلِكَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ: فَأَخْبِرُونِي: كَيْفَ لِي أَنْ أُطْلِعَ إِلَى السَّمَاءِ الْعُلْيَا فَأَقْتُلَ مَنْ فِيهَا، وَأَتَّخِذَهَا مُلْكًا لِي، فَإِنِّي قَدْ فَرَعْتُ مِنَ الْأَرْضِ، قَالُوا: مَا يَفِدُرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ، قَالَ: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَأَقْتُلَنَّكُمْ عَنْ آخِرِكُمْ، فَبَكَوْا وَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِقُدْرَتِهِ بَعُوضَةً، فَدَخَلَتْ مِنْخَرَهُ حَتَّى عَضَّتْ بِأَمِّ دِمَاعِهِ، فَمَا كَانَ يَقْرُ وَلَا يَسْكُنُ حَتَّى يُوجِبَ لَهُ رَأْسُهُ عَلَى أَمِّ دِمَاعِهِ، فَلَمَّا مَاتَ شَقُّوا رَأْسَهُ فَوَجَدُوا الْبَعُوضَةَ عَاضَةً عَلَى أَمِّ دِمَاعِهِ؛ لِيُرِيَ اللَّهُ الْعِبَادَ قُدْرَتَهُ.

فَصَلِّ:

قَالَ تَعَالَى: **(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**، وَقَالَ

تَعَالَى: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا).

وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: أُيِّدُوا بِالْمَلَائِكَةِ وَالْجُنُودِ.

وَقَالَ تَعَالَى: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ - إِلَى قَوْلِهِ - وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ).

وَمِمَّا يُذَكِّرُ هُنَا تَوَجُّهُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ، قَالَ تَعَالَى: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٥٣) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٦٣) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٧٣) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ).

لَقَدْ خَضَعَ لِهَذَا الْمُلْكِ الْإِسْلَامِي الْعَظِيمِ مُلْكُ بَلْقَيْسَ بِسَبَأٍ، وَقَدْ كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِأَدْوَاتِ التَّمْكِينِ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ كَافِرَةً. قَالَ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْهُدُودِ لِسُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُكُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ - إِلَى قَوْلِهِ - قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). وَقَدْ ذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا تَزَوَّجَهَا أَقْرَبَهَا عَلَى مَمْلَكَةِ الْيَمَنِ، وَرَدَّهَا إِلَيْهِ، وَكَانَ يَزُورُهَا. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَضْلٌ:

قَالَ تَعَالَى عَنْ دَوْلَةِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ؛ أَي: هَيَّأْنَا لَهُ تَقْوِيَةَ مُلْكِهِ وَثَبَّتْنَاهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ دَاوُدُ أَشَدَّ مُلُوكِ الْأَرْضِ سُلْطَانًا».

لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ أَسْبَابًا لِلتَّمْكِينِ قَدْ تَجَسَّدَتْ جَلِيَّةً عَلَى مَسْرَحِ التَّارِيخِ، مِنْ خِلَالِ

سَيْرِ الْأُمَمِ وَالْحَضَارَاتِ وَالدُّوَلِ وَالْإِمَارَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ، فَمُرَاعَاتُهَا بِصِدْقٍ وَجِدِّيَّةٍ
عُنْوَانُ الرَّشَادِ، وَأَهْمُ أَسْبَابِ التَّمْكِينِ مَا يَلِي:

- التَّعَرُّفُ عَلَى اللَّهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ.

- الْقِيَامُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.

- الْعَمَلُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْحُكْمُ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَا الْأَحْكَامَ الْوَضْعِيَّةِ.

- تَمَسُّكُ الْمُجْتَمَعِ بِالْإِسْلَامِ أَحْكَامًا وَآدَابًا.

- نَشْرُ السُّنَّةِ، وَتَرْسِيخُ عَقِيدَةٍ وَمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

- التَّمَدُّدُ الْإِسْلَامِيُّ وَلَوْ بِالذَّعْوَةِ، وَتَبْلِيغُ الْإِسْلَامِ لِلْعَالَمِ.

- تَحْقِيقُ عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ.

- تَعْلِيمُ الرَّعِيَّةِ وَتَثْقِيفُهُمْ وَتَوْعِيَّتُهُمْ.

- بِنَاءُ الشَّخْصِيَّةِ النَّسَائِيَّةِ بِنَايَةِ إِسْلَامِيَّةٍ.

- اتِّخَاذُ الْبَطَانَةِ الصَّالِحَةِ النَّاصِحَةِ.

- وَضْعُ الْأَنْظِمَةِ الْعَادِلَةِ وَتَطْوِيرُهَا وَإِدَارَتُهَا بِحَزْمٍ.

- إِعْطَاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

- اسْتِمَالَةُ قُلُوبِ النَّاسِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ.

- جَمْعُ الْكَلِمَةِ، وَتَوْحِيدُ الصِّفِّ، وَنَشْرُ الْأَنْفَعَةِ، وَنَبْذُ الْفُرْقَةِ.

- تَقْدِيمُ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَتَوَلِيَةُ الْأَقْوِيَاءِ الْأَمْنَاءِ مِنْهُمْ.
- تَطْهِيرُ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ.
- صَدُّ التِّيَّازَاتِ الْفِدْرِيَّةِ الْمُضَلِّلَةِ.
- التَّفْطُنُ لِكَيْدِ الْعَدُوِّ الْخَارِجِيِّ وَالذَّاخِلِيِّ.
- الْإِبْتِعَادُ عَنِ الْأَنْغِمَاسِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَذَّاتِ.
- إِعْدَادُ الْقُوَّةِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ الشَّامِلَةِ.
- التَّقَدُّمُ وَالتَّطَوُّرُ فِي مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، وَنَبْذُ التَّخَلُّفِ.
- الْإِهْتِمَامُ بِرَفْعِ الْاِقْتِصَادِ وَالذَّخْلِ الْحَلَالِ.
- حِفْظُ الصَّرُورَاتِ الْخَمْسِ أَوْ السِّتِّ: الدِّينِ، وَالنَّفْسِ، وَالنَّسْلِ، وَالْعَرِضِ،
وَالْعَقْلِ، وَالْمَالِ.
- النَّصِيحَةُ لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ.
- الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَفْعِيلُ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَالْمُعَاقَبَةِ.
- وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَي نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

1- قال تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)؛ أي: عامرٌ وخرابٌ.

وقال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ)، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ عِدَّةَ قُرَى كَفَرَتْ وَعَصَتْ، قال تعالى: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، وقال تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)، وقال تعالى: (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (٦٣١) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (٧٣١) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

قال قتادة: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ، أَخَذَ عَلَى سَدُومَ قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطٍ».
فَاللَّبِيبُ يَتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ، وَيَتَفَكَّرُ وَيَتَذَكَّرُ، بِمَا حَلَّ بِتِلْكَ الْأُمَّمِ.

2- قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْخُلُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «هِيَ أَرِيحَا». وَبَابُ الْحِطَّةِ؛ قَالَ مُجَاهِدٌ: «بَابُ إِبْلِيَاءٍ». أَنْ يَدْخُلُوهُ رُكْعًا، وَأَنْ يَقُولُوا: «حِطَّةٌ»؛ أَي: اْحْطُطْ عَنَّا خَطَايَانَا؛ لِتُغْفَرَ ذُنُوبُهُمْ، وَيَزَادَ الْمُحْسِنُونَ إِحْسَانًا، لَكِنَّهُمْ بَدَّلُوا لِشِقَائِهِمْ، فَدَخَلُوا يَرْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا:

حِنْطَةً، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ.

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: بَعَثَ عَلَيْهِمُ الطَّاعُونَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، قَالَ: وَبَقِيَ الْأَبْنَاءُ.

3- قال تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

اجْتَازَ عَزِيرٌ أَوْ غَيْرُهُ عَلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ أَوْ غَيْرِهَا، وَكَانَتْ قَرْيَةً خَرِبَةً، فَاسْتَبَعَدَ عَمْرَانَهَا مَرَّةً أُخْرَى، فَأَرَاهُ اللَّهُ قُدْرَتَهُ فِي نَفْسِهِ، حَيْثُ أَمَاتَهُ قَرْيَةً ثُمَّ أَحْيَاهَا، وَأَعَادَ خَلْقَ حِمَارِهِ، وَأَرْجَعَ الْقَرْيَةَ عَامِرَةً بِالسُّكَّانِ، فَسُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي خَلْقَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، وَيُعِيدُهُمْ بَعْدَ فَنَائِهِمْ!

4- قال تعالى: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِّنْ لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِّنْ لَّدُنكَ نَصِيرًا).

حَرَّضَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نُصْرَةِ إِخْوَانِهِمُ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْهَجْرَةِ لِضَعْفِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ، فَعَلَبَتْهُمْ عَشَائِرُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَقَهَرُوهُمْ وَأَذَوْهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ لِيَقْتُلُوهُمْ عَنِ دِينِهِمْ، فَكَانُوا يَدْعُونَ اللَّهَ بِأَنْ يَسْتَنْقِذَهُمْ مِنْ قَبْضَتِهِمْ، فَحَضَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَخْلِيصِهِمْ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

5- قال تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ).**

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُ الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَقَابَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ ... فَعَدَدَ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمًا فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيُرِدُونَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

وَقَدْ فَتَحَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَكَّةَ، فَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.

6- قال تعالى: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ).**

فَالْقُرَى الْمُهْلَكَةُ وَالْمُعَذَّبَةُ كَانَ رُؤَسَاؤُهَا وَعُظَمَاؤُهَا مُجْرِمِينَ يَتَحَايَلُونَ عَلَى فِعْلِ الْمُنْكَرَاتِ، وَيَخْدَعُونَ غَيْرَهُمْ لِيُضِلُّوهُمْ عَنِ الْهَدَايَةِ، وَيُنْفِرُوهُمْ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَكَمْ مِنْ بَلَدٍ فِيهِ رُؤُوسٌ مُتَجَبِّرَةٌ، يُفْسِدُونَ فِيهَا وَلَا يُصْلِحُونَ، وَمَا إِجْرَامُهُمْ وَإِفْسَادُهُمْ إِلَّا رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ؛ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ.

قال تعالى: **(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا فِيهَا فَسَاقًا فِيهَا فَهَتْقَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا هَاتَا تَدْمِيرًا).**

7- قال تعالى: **(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ).**

فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى جَمِيعِ الْقُرَى؛ حَيْثُ أُرْسِلَ الرُّسُلُ، وَأُنزِلَ الْكُتُبُ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ، وَأَوْضَحَ الْمَحَجَّةَ، وَلَا يُهْلِكُ اللَّهُ بَلَدًا لَوْ قُوعِهِ فِي الشِّرْكِ وَالذُّنُوبِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُنذِرَ أَهْلَهُ، وَيُبَيِّنَ لَهُمُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالهُدَى مِنَ الضَّلَالِ.

قال تعالى: **(فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أُرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).**

8- قال تعالى: **(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤))**

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ).

لَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ قُرَى كَثِيرَةً بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، فَلَمَّا عَايَنُوا أَوَّلَ الْعَذَابِ دَعَوْا اللَّهَ مُعْتَرِفِينَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، بِإِتْكَابِهِمْ الشِّرْكَ، وَإِتْيَانِهِمُ الْمُنْكَرَاتِ، وَاقْتِرَافِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ. قال تعالى: **(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).** وَقَدْ أَنْذَرَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ هَذِهِ الْأُمَّةَ.

قال ابن جرير: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من قوله: **«مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّى يُعَذِّبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ».**

9- قال تعالى: **(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).**

هَذِهِ الْآيَةُ جَاءَتْ بَعْدَ آيَاتٍ ذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا إِهْلَاكَ قُرَى كَذَّبَتْ رُسُلَهَا، فَأَهْلَكَ اللَّهُ تِلْكَ الْمُدُنَ بِأَنْوَاعٍ مِّنَ الْعَذَابِ؛ أَغْرَقَ قَوْمَ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَقَوْمَ فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ، وَأَهْلَكَ عَادًا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ، وَأَخَذَتْ ثَمُودَ وَقَوْمَ شُعَيْبٍ الرَّجْفَةَ، وَهِيَ الصَّيْحَةُ، وَقَلَبَ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سَجِيلٍ.

فَالْتَكْذِيبُ سَبَبُ التَّعْذِيبِ، وَإِثْيَانُ الْمَأْتِمِ وَالْمَحَارِمِ مِنْ عَوَامِلِ شِدَّةِ الْحَالِ، وَشَطْفِ الْعَيْشِ، وَالْفَقْرِ، وَالْجُوعِ، وَالْعَجْزِ عَنِ النَّفَقَاتِ، وَالْإِيْمَانِ وَالتَّقْوَى سَبَبُ نُزُولِ الْبَرَكَاتِ، وَخُرُوجِ الْخَيْرَاتِ.

10- قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ لُوطٍ: **(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ) (٢٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٨) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)**، وَقَالَ تَعَالَى: **(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ).**

هَذَا شَأْنُ رُؤْسَاءِ الشَّرِّ وَعُشَاقِ الْفَسَادِ؛ يُرِيدُونَ بِيَدِنَا مَوْبُوءَةً خَرَابًا خَالِيَةً مِّنَ الْقِيمِ وَالْمَبَادِي الدِّيْنِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ؛ حَتَّى يَرْتَكِبُوا فِيهَا الْمُنْكَرَاتِ، وَيَنْتَهَكُوا فِيهَا الْمَحْرَمَاتِ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُمْ: «إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ». قَالَ قَتَادَةُ: عَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْبٍ، وَذَمُّوهُمْ بِغَيْرِ ذَمٍّ.

11- قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ) (٤٩) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

رَسَائِلُ اللَّهِ وَنُذْرُهُ إِلَىٰ أَهْلِ الْقُرَىٰ مُتَعَدِّدَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ؛ وَمِنْهَا: ابْتِلَاؤُهُمْ بِشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ، وَضِيقِ الْمَعِيشَةِ، وَسُوءِ الْحَالِ؛ لِيَسْتَكِينُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيُنِيبُوا إِلَيْهِ، وَيَقْلِعُوا عَنِ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ؛ فَإِنْ لَمْ يَنْتَبَهُوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ، وَيَسْتَيْقِظُوا مِنْ رَقَدَتِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ هَذِهِ سُنَّةُ الْحَيَاةِ تَتَقَلَّبُ وَتَتَغَيَّرُ؛ أَتَاهُمُ الرَّخَاءُ وَالنِّعْمَةُ وَالسَّعَةُ فِي الْمَعِيشَةِ وَاعْتَدَالُ الْحَالِ اسْتِدْرَاجًا، حَتَّىٰ إِذَا كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُمْ، وَسُرُّوا بِذَلِكَ: أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ فَجَاءَتْ، وَأَتَاهُمْ عَلَىٰ غِرَّةٍ.

12- قال تعالى: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ) (٧٩) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ) (٨٩) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (٩٩) أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءِ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ).

إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ، وَأَظْهَرُوا الْمُنْكَرَاتِ، وَأَعْلَنُوا الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّ عُقُوبَةَ اللَّهِ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، وَاسْتَحَقَّتِ الْقُرَىٰ بِذَلِكَ الدَّمَارِ وَالْخَرَابِ وَالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ، فَكَيْفَ يَأْمَنُ أَهْلُ الْقُرَىٰ بِأَسِّ اللَّهِ وَمَكْرِهِ بِهِمْ، إِذْ يَعْصُونَهُ وَهُوَ يُعْذِقُ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ، أَمَا يَخْشَوْنَ أَن يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا لِحُلُولِ النِّقَمِ، فَقَدْ أَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ الْأُمَمِ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

13- قال تعالى: **(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١))**

فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَنْبَاءِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَشُعَيْبٍ، وَأَخْبَارٍ مَنْ سَارَ عَلَى جَادَتِهِمْ وَأَخَذَ بِسِيرَتِهِمْ، فَكُلُّهُمْ أَهْلِكُوا وَعَذِّبُوا بِسَبَبِ جَدِّهِمْ لِبِرَاهِينِنَا، وَتَكْذِيبِهِمْ لِحُجَجِنَا، وَمُعَادَاتِهِمْ لِرُسُلِنَا، فَاحْذَرُوا خْتَمَنَا عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ.

وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ»، قَالَ: كَانَ فِي عِلْمِهِ يَوْمَ أَقْرُوا لَهُ بِالْمِيثَاقِ؛ أَي: نَفَذَ عِلْمُهُ فِيهِمْ، أَيُّهُمْ الْمُطِيعُ مِنَ الْعَاصِي، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِتَكْذِيبِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ.

14- قال تعالى: **(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).**

اِحْتِيَالُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ عَلَى اسْتِحْلَالِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، حَيْثُ نَهَاهُمْ عَنِ الصَّيْدِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، فَكَانُوا يَنْصِبُونَ شِبَاكَهُمْ قَبْلَهُ، وَيُخْرِجُونَهَا بَعْدَهُ، فَمَسَخَهُمُ اللَّهُ عُقُوبَةً.

قال تعالى: **(فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٥٦)) فَجَعَلْنَا هَانِكًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ).** قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قَرْيَةٌ يُقَالُ لَهَا: «أَيْلَةَ»، بَيْنَ مَدْيَنَ وَالطَّوْرِ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ الْقُلُزِمِ». يَعْنِي (الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ).

15- قَالَ تَعَالَى: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ).

فَكَيْفَ يَأْمَنُ عُقُوبَةَ اللَّهِ مَنْ يُصِرُّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ!؟

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ هَذَا فِي الْأَمَمِ قَبْلَهُمْ، لَمْ يَنْفَعِ قَرْيَةً كَفَرَتْ ثُمَّ آمَنَتْ حِينَ حَضَرَهَا الْعَذَابُ، فَتُرِكَتْ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ، لَمَّا فَقَدُوا نَبِيَّهُمْ، وَظَنُّوا أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ دَنَا مِنْهُمْ؛ فَذَفَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةَ، وَلَبِسُوا الْمُسُوحَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلَدِيهَا، ثُمَّ عَجُّوا إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا عَرَفَ اللَّهُ الصِّدْقَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّوْبَةَ وَالذَّامَةَ عَلَى مَا مَضَى مِنْهُمْ، كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ بَعْدَ أَنْ تَدَلَّى عَلَيْهِمْ.

قَالَ: وَدُكِّرَ لَنَا أَنَّ قَوْمَ يُونُسَ كَانُوا بِنِينُوى أَرْضِ الْمُوصِلِ.

16- قَالَ تَعَالَى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ).

فَأَيُّنَ الْمُتَمَاتِلُونَ فِي الدُّوَلِ الدَّاهِبَةِ وَالْمَدَائِنِ الْمُهْلَكَةِ، (مِنْهَا قَائِمٌ): يُرَى أَثَرُ بُنْيَانِهِ، وَمِنْهَا (حَصِيدٌ): خَرَّ بُنْيَانُهُ، وَعَقَى أَثَرُهُ.

وَمَنْ قَرَأَ التَّارِيخَ وَاطَّلَعَ عَلَى قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَجَدَ الدُّرُوسَ وَالْعِبَرَ، فَاسْأَلْ لِلْعِظَةِ إِنَّ صَدَحَتِ الْمَوَاقِعُ جَنُوبَ الْعِرَاقِ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ، وَاسْأَلْ رِمَالَ الْأَحْقَافِ بَيْنَ الْيَمَنِ وَعُومَانَ عَلَى تَحُومِ الرَّبِيعِ الْخَالِيِّ عَنْ عَادٍ، وَاسْأَلْ مَدَائِنَ صَالِحٍ بِالْعُلَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَتَبُوكَ عَنْ سُكَّانِ الْحِجْرِ مَدِينَةِ ثَمُودَ، وَاسْأَلْ مِنْطَقَةَ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ وَعُورَ الْأُرْدُنِ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ، وَاسْأَلْ مِصْرَ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُهْلَكِينَ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا

مَرَّ بِالْحِجْرِ، قَالَ: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاقِينَ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ».

17- قال تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَخْذَرَ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)**. يَعْنِي مُوجِعٌ بِقُوَّةٍ؛ لِشُرْكِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ مُوجِبَاتِ غَضَبِ اللَّهِ، وَالْأَلِيمَ عِقَابِهِ، وَشَدِيدَ عَذَابِهِ.

قال تعالى: **(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)**؛ فَكَيْفَ تُصِرُّونَ عَلَىٰ ذُنُوبِكُمْ وَمَعَاصِيكُمْ، وَتُعَانِدُونَ وَتُكَابِرُونَ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا حَلَّ بِالْقُرَىٰ الْمُكَذِّبَةِ قَبْلَكُمْ؟ فَأُمَّةٌ مُسَخَّتْ قِرْدَةً، وَأُخْرَىٰ خَنَازِيرَ، وَأُخْرَىٰ وَأُخْرَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **(فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذْتَهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا)**، وَتِلْكَ هِيَ (الْمَثَلَاتُ).

18- قال تعالى: **(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ)**.

إِذَا ظَهَرَتِ الْمُذْكَرَاتُ وَكَثُرَتْ، اسْتَحَقَّ أَهْلُ الْقَرْيَةِ الْعِقَابَ، فَإِنْ اجْتَهَدَ الْمُصْلِحُونَ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: (أَيُّ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَهُمْ بِالْكَفْرِ وَخُدَّةِ حَتَّىٰ يَنْضَافَ إِلَيْهِ الْفَسَادُ، كَمَا

أَهْلَكَ قَوْمَ شُعَيْبٍ بِبَخْسِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَقَوْمَ لُوطٍ بِاللِّوَاطِ. وَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ

الْمَعَاصِيَ أَقْرَبُ إِلَىٰ عَذَابِ الْإِسْتِنْصَالِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشِّرْكِ، وَإِنْ كَانَ عَذَابُ الشِّرْكِ

فِي الْآخِرَةِ أَضْعَبَ. وَفِي صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: سَمِعْتُ

رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ). انتهى.

19- قال تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ).

المَفْصُودُ بِالْقَرْيَةِ هُنَا مِصْرُ، وَكَانَتْ عَلَى الشَّرْكِ، وَلَمَّا دَخَلَهَا نَبِيُّ اللَّهِ يُوسُفُ كَانَ بَرَكَتَةً عَلَيْهَا، وَرَحْمَةً لِأَهْلِهَا، حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ، وَمَكَّنَ اللَّهُ لَهُ، وَمَلَكَهُ أَرْمَةَ أُمُورِهَا وَخَزَائِنِهَا، فَصَلَحَتْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ، وَزَادَتْ الْخَيْرَاتُ، وَكَثُرَتِ الْبَرَكَاتُ، وَسُنَّةُ اللَّهِ التَّمَكِينُ لِأَوْلِيَائِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ).

20- قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

فَمِنْ أَسْبَابِ الْأَعْتِبَارِ وَالْإِتِّعَازِ وَحَيَاةِ الْقُلُوبِ: الْقِرَاءَةُ فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ، وَنِهَآيَاتِ الدُّوَلِ، وَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا جَرَى لِلْقُرَى الظَّالِمَةِ الَّتِي قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَنْبَائِهَا وَأَخْبَارِهَا فِي الْقُرْآنِ، وَإِهْلَاكُهُ لِأَهْلِهَا، وَتَقْوِيضُهُ لِعُرُوشِهَا.

قال تعالى: (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاَهُمْ تَدْمِيرًا (٦٣))

وَقَوْمٌ نُوِّجَ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا (٧٣) وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٨٣)
وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا).

21- قال تعالى: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ
أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ).

أَنْذَرَ اللَّهُ كُفَّارَ مَكَّةَ وَمَنْ افْتَقَى أَثَرَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (إِنَّ اللَّهَ لَيُهْمِلِي
لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ
إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَدْ قُتِلَ رُؤُوسُ الْكُفْرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَطَرِحُوا
فِي قَلْبِهَا.

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَهْلَ الْقَلْبِ، يَا عَثْبَةَ بَنِ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ
بَنِ رَبِيعَةَ، وَيَا أُمَيَّةَ بَنِ خَلْفٍ، وَيَا أَبَا جَهْلٍ بَنِ هِشَامٍ - فَعَدَدَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي
الْقَلْبِ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».
قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهَذَا عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ.

22- قال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ).

المَقْصُودُ بِالْقَرْيَةِ هُنَا مَكَّةُ، فَلِقَدَاسَتِهَا الدِّينِيَّةِ عَاشَ أَهْلُهَا وَمَنْ دَخَلَهَا فِي أَمْنٍ

وَطُمَأْنِينَةٍ، فَلَا يُسْفِكُ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُعْتَدَى عَلَى مَالٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَرْزَاقُهُمْ تَأْتِيهِمْ مِنْ جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ أَسْبَابَهَا، وَلَمَّا لَمْ يَشْكُرْ أَهْلُهَا اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ، بَلْ قَابَلُوا آيَاهُ بِالْكَفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، عَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِالْجُوعِ، وَالْفَقْرِ، وَشِدَّةِ الْحَالِ، وَالْخَوْفِ وَالْقَلْقِ، فَأَكَلُوا الْجِيْفَ وَالنَّتْنَ، وَخَالَطَ الْفَرْعُ قُلُوبَهُمْ خَوْفًا مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَالذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي سَبَبُ تَدَهُورِ الْأُمُورِ وَانْقِلَابِ الْحَالِ.

23- قال تعالى: **(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا هَاتَمِيرًا (٦١) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِنُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).**

وقال تعالى: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ).**

قُرَيْتٌ: (أَمَرْنَا)؛ بِتَخْفِيْفِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، مِنَ الْأَمْرِ، وَقُرَيْتٌ: (أَمَرْنَا)؛ بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ، مِنَ الْإِمَارَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)، قَالَ: بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَعَصَوْا. وَقَالَ: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا): سَلَطْنَا أَشْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالْعَذَابِ. وَالْمَعْنَى أَنَّ انْحِرَافَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكُبْرَاءِ سَبَبُ انْحِرَافِ جَهْلَةِ النَّاسِ، وَضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ، وَظُهُورِ الْفَسَادِ، وَكَثْرَةِ الْخَبْثِ، وَتِلْكَ مِنْ عَوَامِلِ الْإِهْلَاكِ وَالتَّدْمِيرِ.

24- قال تعالى: **(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا).**

فَمَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ إِلَّا زَائِلُونَ؛ إِمَّا بِانْقِضَاءِ أَجَلٍ وَانْتِهَاءِ مُدَّةٍ، أَوْ بِتَعْجِيلِ عَذَابٍ

أَلِيمٍ وَعُقُوبَةٍ شَدِيدَةٍ.

قال تعالى: **(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ)،** فَكُلُّهَا - وَهِيَ كَثِيرَةٌ - إِمَّا بَائِدَةٌ بِكِتَابٍ، أَوْ
مُسْتَأْصَلَةٌ بِعَذَابٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ قَرْيَةٍ فِي الْأَرْضِ سَيُصِيبُهَا بَعْضُ هَذَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِمَّا أَنْ يُهْلِكَهَا
بِمَوْتٍ، وَإِمَّا أَنْ يُهْلِكَهَا بِعَذَابٍ مُسْتَأْصَلٍ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ.

وَعَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: إِذَا ظَهَرَ الزَّنَا وَالرِّبَا
فِي أَهْلِ قَرْيَةٍ أَدْنَى اللَّهُ فِي هَلَاكِهَا.

25- قال تعالى: **(وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ
إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَتِلْكَ الْقُرَىٰ
أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا).**

كَثِيرٌ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الْمُعَانِدِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، مَعَ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ
آيَاتِهِ، وَيَرَوْنَ مُعْجَزَاتِهِ، حَتَّىٰ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ، كَمَا نَزَلَ بِأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ
الْمُكْذِبَةِ الْمُنذَرَةِ، وَالْقُرَى الْمُهْلَكَةِ الْمُسْتَأْصَلَةِ، فَيَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فَجَاءَةً وَيَرَوْنَ الْعُقُوبَةَ
عَيْنًا، فَالْقُرَى السَّابِقَةُ: عَادٌ، وَثَمُودٌ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَغَيْرُهُمْ؛ أَهْلِكَ أَهْلُهَا لَمَّا
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ.

قال تعالى: **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).**

26- قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ وَالْحَضِرِ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: **(فَانطَلَقَا
حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا).**

يُقَالُ: إِنَّ الْقَرْيَةَ «الْأَيْلَةَ» ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ سِيرِينَ، وَهِيَ مَدِينَةُ بِالْعِرَاقِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ

البَصْرَةَ أَرْبَعَةَ فَرَاسِخَ.

قَالَ قَتَادَةُ تَحْتَ هَذِهِ الْآيَةِ: «سُرُّ الثَّرَى الَّتِي لَا تُضِيفُ الضَّيْفَ، وَلَا تَعْرِفُ لِابْنِ السَّبِيلِ حَقَّهُ».

وَقَالَ الْفَرُطَبِيُّ: «اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْقَرْيَةِ، فَقِيلَ: هِيَ أَيْلَةُ، قَالَه قَتَادَةُ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، وَهِيَ أَبْحَلُ قَرْيَةٍ وَأَبْعَدُهَا مِنَ السَّمَاءِ، وَقِيلَ: أَنْطَاكِيَّةٌ، وَقِيلَ: بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ، وَيُذَكَّرُ أَنَّهَا الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ، إِلَى أَنْ قَالَ: وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ». انتهى.

فَالْقُرْآنُ يَدْعُو إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَعَالِي الْأَدَابِ، وَقَدْ خَلَّدَ هَذِهِ الْمَثَلَبَةَ مَا بَقِيَ فِي السُّطُورِ وَالصُّدُورِ.

27- قال تعالى: **(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ).**

الْقُرَى الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ الدَّلَائِلُ وَالْبَرَاهِينُ وَالْآيَاتُ وَالْمُعْجِزَاتُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَمِثْلُهُمْ كُفَّارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْلَهَا وَآخِرُهَا، وَقَدْ شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ، وَالدَّلَائِلِ الْبَيِّنَاتِ، فَمَا فَقَهَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلَا نَفَعَتْهُمْ عُقُولُهُمْ، فَالْآيَاتُ الْمُعْجِزَاتُ وَالنُّذُرُ الْمَذَكِّرَاتُ، إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ لَا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ.

قال تعالى: **(وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)**، وقال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٦٩) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ).**

28- قال تعالى: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرُكُضُونَ (٢١) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (٣١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤١) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ).

لَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ قُرَى كَثِيرَةً لِشُرْكِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ، حَتَّى إِذَا شَعَرُوا بِالْعَذَابِ هَرَبُوا وَوَلَاتَ حِينَ مَهْرَبٍ، وَاعْتَرَفُوا وَوَلَاتَ سَاعَةَ اعْتِرَافٍ، فَأَخْمَدَتْهُمْ عُقُوبَةُ اللَّهِ، فَلَمْ يَعْصِمْهُمْ تَرْفُهُمْ، وَلَمْ تُحْصِنْهُمْ بُيُوتُهُمْ.

قَالَ تَعَالَى عَنِ ابْنِ نُوحٍ أَحَدِ نَمَازِجِ الْمُهْلَكِينَ: (قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ).

29- قال تعالى: (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْتُمْ لَا يَرْجِعُونَ).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ رَاجِعٌ، وَلَا يَتُوبُ مِنْهُمْ تَائِبٌ».

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «لَمْ يَكُنْ لِيَرْجِعَ مِنْهُمْ رَاجِعٌ، حَرَامٌ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ».

فَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَلَاكَ وَالْعَذَابَ، فَمَنْ أَهْلَكَهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ فَتَوْبَتُهُ بَعْدَ أَنْ عَايَنَ الْعَذَابَ مَرْدُودَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ: (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ).

وَكَذَلِكَ لَا عَوْدَةَ لِلْمُهْلَكِينَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَرَّةً أُخْرَى، فَالْعَجَبُ كَيْفَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ الْعَذَابَ بِهِمْ!

30- قال تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ (٢٤) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٣٤) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٥٤) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

فَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ وَيَتَّعِظْ مِنْ قِصَصِ الْقُرَى الْمُهْلَكَةِ، وَالْأُمَّمِ الْمُعَذِّبَةِ، وَالذُّلُولِ الْمُسْتَأْصَلَةِ، بِسَبَبِ ذُنُوبِهَا وَعِضْيَانِهَا؛ فَهِيَ مَيِّتُ الْقَلْبِ، أَعْمَى الْبَصِيرَةِ، كَيْفَ لَا وَبُيُوتُهُمْ خَالِيَةٌ، وَأَبَارُهُمْ خَرَابٌ، وَبُنْيَانُهُمُ الْمُحْصَنَةُ دَمَارٌ، لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، فَأُمَّةٌ لَا حَسِيسَ بِهَا وَلَا أَنْيَسَ آيَةً.

31- قال تعالى: (وَلَوْ طَأَّ تِينَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)، وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَيَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوِّءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا).

لَقَدْ قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا خَبَرَ قَوْمِ لُوطٍ وَإِهْلَاكِهِ لَهُمْ بِالْحِجَارَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ، تَنْفِيرًا وَتَحْذِيرًا مِنْ جَرِيمَتِهِمُ الشَّنِيعَةِ، وَمِنْ كُلِّ فَاخِشَةٍ وَمَعْصِيَةٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَمْسُ قَرْيَاتٍ، فَأَهْلَكَ اللَّهُ أَرْبَعَةً، وَبَقِيَتِ الْخَامِسَةُ، وَأَسْمُهَا صُغُوَّةٌ، لَمْ تُهْلَكْ صُغُوَّةٌ، كَانَ أَهْلُهَا لَا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ الْعَمَلِ، وَكَانَتْ سَدُومٌ أَعْظَمَهَا، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُنَادِي نَصِيحَةً لَهُمْ: يَا سَدُومُ، يَوْمَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ، أَنْهَاكُمْ أَنْ تَعْرَضُوا لِعُقُوبَةِ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **(أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا)**؛ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، حَيْثُ يَمُرُونَ عَلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ، وَيَعْرِفُونَ إِهْلَاكَ اللَّهِ لَهُمْ، فَكَيْفَ لَا يَتَّقُونَ انْتِقَامَهُ، وَلَا يَخَافُونَ عَذَابَهُ؟!

32- قال تعالى: **(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ).**

لَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ قُرَى كَثِيرَةً بِسَبَبِ أَنَّهَا بَطَرَتْ وَأَشْرَتْ وَطَعَتْ، فَبَدَلَ أَنْ تَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ بِتَوْحِيدِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ؛ لِيَحْفَظَهَا لَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، كَفَرَتْ وَجَدَدَتْ وَتَنَكَّرَتْ وَعَصَتْ، فَأَهْلَكَهَا اللَّهُ وَدَمَّرَهَا، فَخَلَّتْ دِيَارُهُمْ، وَخَرِبَتْ أَبْنِيَّتُهُمْ، وَخَلَفَهُمْ فِيهَا الْقَلِيلُ، فَأَبْدَلَهَا اللَّهُ قِلَّةً بَعْدَ كَثْرَةٍ، وَذِلَّةً بَعْدَ عِزَّةٍ، وَضَعْفًا بَعْدَ قُوَّةٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي تِلْكَ الْقُرَى.

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «الْبَطْرُ: أَشْرُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ وَالرُّكُوبِ لِمَعَاصِي اللَّهِ، وَقَالَ: ذَلِكَ الْبَطْرُ فِي النِّعْمَةِ».

33- قال تعالى: **(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَارِ سُؤْلًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).**

مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ وَلُطْفِهِ وَجِلْمِهِ بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ لَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ، فَالْقُرَى الْكَافِرَةُ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُهْلِكَهَا عَلَى ظُلْمِهَا حَتَّى يَبْعَثَ فِي مَكَّةَ أُمَّ الْقُرَى رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِشِيرًا وَنَذِيرًا، يُقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَيُوضِحُ لَهُمُ الْمَحَجَّةَ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ، فَإِنْ أَهْلَكَهَا عَلَى إِضْرَارِهَا فَلِعَذْلِهِ، وَإِنْ لَمْ يُهْلِكَهَا فَبِرَحْمَتِهِ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ السَّابِقَةِ، فَلَا يُهْلِكُ إِلَّا الْمُنذَرِينَ، وَلَا يُهْلِكُ إِلَّا

الظَّالِمِينَ الْعَاصِينَ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ صَدَائِدَ مَكَّةَ لِظُلْمِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «اللَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَرْيَةً بِيَمَانٍ، وَلَكِنَّهُ يَهْلِكُ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ إِذَا ظَلَمَ أَهْلَهَا، وَلَوْ كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ لَمْ يَهْلِكُوا مَعَ مَنْ هَلَكَ، وَلَكِنَّهُمْ كَذَّبُوا وَظَلَمُوا، فَبِذَلِكَ أَهْلِكُوا».

34- قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) (١٣) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٣) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٣) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مَهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ سَدُومَ، قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطٍ، لِفِسْقِهِمْ بِارْتِكَابِهِمُ الْفَاحِشَةَ لَا لِكُفْرِهِمْ وَحَدَهُ، فَقَدْ كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ جِبْرَائِيلَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَاذْتَسَفَتِ الْمَدِينَةَ وَمَا فِيهَا بِأَحَدٍ جَنَاحِيهِ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَتَتَبَعَهُمْ بِالْحِجَارَةِ بِكُلِّ أَرْضٍ».

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ، وَأَثَارُهُمُ الْبَاقِيَّةُ، وَمَعَالِمُهُمُ الْمُنْدَرِسَةُ: عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ.

35- قال تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ).

مَرْجِعُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

لَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ الْقُرَى الْمُهْلَكَةَ الْمُعَذَّبَةَ بِإِنذَارِهِ وَإِمهَالِهِ.

قال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)؛ فَقَوْمُ نُوحٍ أَعْرَقَهُمُ اللَّهُ بِالطُّوفَانِ، وَعَادٌ أَهْلَكَهُمْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، وَثَمُودُ أَهْلَكَهُمْ بِالرَّجْفَةِ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ سَلَبَهُمُ النِّعْمَةَ، وَأَهْلَكَ مَلِكُهُمُ النَّمْرُودَ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ أَهْلَكَهُمْ بِعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، وَقَوْمُ لُوطٍ قَلَبَ بِهِمْ أَرْضَهُمْ، فَصَارَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا، وَكُفَّارُ مَكَّةَ أَهْلَكَهُمْ بِالسَّيْفِ، وَصُورُ عَذَابِهِ لِلْمُذْنِبِينَ مُتَنَوِّعَةٌ، قَالَ تَعَالَى: (فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ).

36- قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (٥١) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (٦١) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (٧١) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (٨١) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

هَذِهِ نَهَايَةُ الْمَعْصِيَةِ وَبَطْرِ الْمَعِيشَةِ، فَأَعْتَبِرُوا وَاتَّعِظُوا، فَلَقَدْ كَانَ بِقُرْيَةِ سَبَأٍ جَنَّتَانِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُخْرِجُ مِكَتَلَهَا عَلَى رَأْسِهَا فَتَمْشِي بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَيَمْتَلِئُ مِكَتَلُهَا، وَمَا مَسَّتْ بِيَدِهَا، وَكَانَتِ أَرْضُهَا طَيِّبَةً.

قال ابن زبيد: «لَمْ يَكُنْ يُرَى فِي قَرِيَّتِهِمْ بَعُوضَةٌ قَطُّ، وَلَا دُبَابٌ، وَلَا بَرَعُوثٌ، وَلَا

عَقْرَبُ، وَلَا حَيَّةٌ»، ثُمَّ قَالَ: «أَذْهَبَ - يَعْنِي السَّيْلَ - تِلْكَ الْقُرَى وَالْجَنَّتَيْنِ».

37- قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ).

فَمَعَ وُجُودِ الْقُرَى الْمَشْهُومَةِ يُوجَدُ قُرَى مَيْمُونَةَ.

قَالَ وَهَبُ بْنُ مُنْبِيهٍ، وَأَبُو مَالِكٍ: هِيَ قُرَى بَصْنَعَاءَ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ التَّابِعِينَ: قُرَى الشَّامِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا: بَيْتُ الْمَقْدِسِ. وَقَالَ: هِيَ قُرَى عَرَبِيَّةٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ. انْتَهَى.

فَكَانَتْ الْغِبْطَةُ وَالنِّعْمَةُ وَالْأَمْنُ وَرَعْدُ الْعَيْشِ وَالْخَيْرَاتُ وَالْبَرَكَاتُ وَسَعَةُ الْأَرْزَاقِ وَالصِّحَّةُ وَالْعَافِيَّةُ، وَلِلَّهِ فِي عِبَادِهِ شُؤُونَ، مِنْ تَحْوِيلِ عَافِيَةٍ وَرَوَالِ نِعْمَةٍ وَفَجَاءَةِ نِقْمَةٍ، أَوْ زِيَادَةِ نِعْمَةٍ وَسَعَةِ رَحْمَةٍ، فَالْخَلْقُ مَا بَيْنَ نِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ بِحَسَبِ صَلَاحِهِمْ وَفَسَادِهِمْ، وَفَوْقَ ذَلِكَ: رَحْمَةُ اللَّهِ أَوْ سَخَطُهُ، وَحِلْمُهُ أَوْ عُقُوبَتُهُ.

38- قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).

قَالَ قَتَادَةُ: «هُمْ جَبَابِرَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُءُوسُهُمْ فِي الشَّرِّ».

وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ مِنْ سَفَهِ كُبْرَاءِ الْأُمَّمِ وَأَعْيَانِ الدُّوَلِ أَهْلِ التَّرَفِ.

تَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)، وَقَالَ تَعَالَى: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)، وَقَالَ تَعَالَى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)، وَقَالَ

تعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَاقِبَلْ يَوْمِ الْحِسَابِ)، وقال تعالى: (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)، وَقَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهٗ: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، وقال تعالى: (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)؛ أَلَا يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ وَأَمْتَالُهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي يَسْتَأْصِلُ شَأْفَتَهُمْ، وَيَقْطَعُ دَابِرَهُمْ؟!

39- قال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ).

ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ التَّابِعِينَ أَنَّ الْقَرْيَةَ هِيَ أَنْطَاكِيَّةُ - مَدِينَةُ بِالرُّومِ - وَتَرَدَّدَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي ذَلِكَ، وَكَانُوا عَلَى الشِّرْكِ وَفِعْلِ الْإِثَامِ وَالْمَعَاصِي، وَقَدْ أَسْرَفُوا فِي افْتِرَافِ الذُّنُوبِ، وَعَزَمُوا عَلَى قَتْلِ الرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَسْمَعُوا نَصِيحَةَ حَبِيبِ صَاحِبِ يَاسِينَ؛ بَلْ قَتَلُوهُ، فَأَنْتَقَمَ اللَّهُ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ، غَضَبًا مِنْهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَقَتَلُوا وَلِيَّهٗ.

وَيَذْكَرُ تَعَالَى: أَنَّهُ فِي إِهْلَاكِهٖ إِيَّاهُمْ لَمْ يُنْزَلْ جُنْدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، بَلِ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَمَا اخْتَأَجُوا عَلَى تَعَنُّتِهِمْ وَغُرُورِهِمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً لَا ثَانِي لَهَا، فَهَلَكُوا فِي لَحْظَتِهِمْ.

40- قال تعالى: (وَقَالُوا الْوَلَا يُنْزِلْ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ).

وَمَا هَذِهِ الْمَكَابِرَةُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَنْمُودَجًا لِلْقُرَى الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا رِجْزَهُ وَغَضَبَهُ، وَالْمَقْصُودُ بِالْقَرْيَتَيْنِ هُنَا مَكَّةُ وَالطَّائِفُ.

وَتَمَرَّدُ الْمُهْلَكِينَ، وَتَحَجُّرُ قُلُوبِهِمْ، وَتَجَمُّدُ عُقُولِهِمْ: ظَاهِرٌ فِي الْقُرْآنِ، فَعَلَى سَبِيلِ

المِثَالِ عَثُو قَوْمِ فِرْعَوْنَ، قَالَ تَعَالَى: (وَقَالُوا مَهْمَا تَنَابَاهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٢٣١) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣٣١) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَكُنْ كَشْفَتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٤٣١) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٣١) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ).

41- قال تعالى: (وَإِذْ كُرُوا خَآعَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٢) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

فَالْأَحْقَافُ: دِيَارُ عَادٍ، وَهُوَ مَا اسْتَطَالَ مِنَ الرَّمْلِ الْعَظِيمِ وَاعْوَجَّ، يَقَعُ بَيْنَ عُمَانَ وَعَدَنَ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ عَادًا، وَأَهْلَكَ جِبْرَ تَمُودَ، وَقُرَى لُوطٍ وَنَحْوَهَا، مِمَّا كَانَ يُجَاوِرُ بِلَادَ الْحِجَازِ، وَمَا انْتَفَعُوا بِالْآيَاتِ وَلَا بِالنُّذُرِ وَالْوَاعِظِينَ.

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٤٦١) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٦١) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَنَاهِمِهِمْ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ).

قال ابنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قَرْيَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْمَدِينَةِ، يُقَالُ لَهَا:

42- قال تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تُنَكَّرًا).

فَالْقُرَى الْهَالِكَةُ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ كَثِيرَةً؛ إِذَا حَدَرْتْنَا هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ مُشَابَهَتِهِمْ وَالسَّيْرِ عَلَى جَادَتِهِمْ، وَلَا نَحْقِرَنَّ مَعْصِيَةً، فَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ تَحْتَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: «قَرْيَةٌ عَذِبَتْ فِي الطَّلَاقِ».

فَلَوْ حَاسَبَ اللَّهُ الْعِبَادَ مُحَاسَبَةً دَقِيقَةً عَلَى نِعَمِهِ وَلَمْ يَرْحَمْهُمْ بِرَحْمَتِهِ لَهَلَكُوا، وَالْعَجَبُ مِنْ عُنُوقِ أَقْوَامٍ وَقُرَى، حَسْبُكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَقَالَ تَعَالَى: (وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ ثُمَّ نَكَّثُوا.

43- قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (٢١) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (٣١) إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ)، وقال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعَادِ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَمَا تَمُّوهُمُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ).

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِهْلَاكَهُ لِهَذِهِ الْأُمَّمِ بِطُغْيَانِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، أَحْمَدَ عَادًا قَوْمَ هُودٍ بِالرِّيْحِ، وَأَحْمَدَ ثَمُودَ قَوْمَ صَالِحٍ بِالصَّيْحَةِ، وَأَغْرَقَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ يُهْلِكْ بَعْدَهُمْ أُمَّةً إِهْلَاكَهَا عَامًّا بِعَذَابٍ، وَقَدْ صَوَّرَ الْقُرْآنُ لَنَا إِهْلَاكَهُمْ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ لِلْعِبْرَةِ وَالْعِظَةِ، فَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَلَمْ يُبْقِهِمُ اللَّهُ عَلَى مَعَاصِيهِمْ، وَلَمْ يَتْرِكْ لِعَادٍ وَثَمُودَ بَقِيَّةً وَخَلْفًا.

44- قال تعالى: (وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)، وقال تعالى: (وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قُرُونٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا).

أَهْلَكَ اللَّهُ أُمَّةً وَأَجْيَالًا بَعْدَ نُوحٍ وَقَبْلَ قَوْمِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، فَلَا وَجُودَ لَهُمْ، فَلَا شَخْصًا يَرَى، وَلَا صَوْتًا يُسْمَعُ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَقَمَارِ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ قَبْلَ نُوحٍ فَكَانُوا عَلَى الْإِسْلَامِ.

رَوَى ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ: (أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ مُكَلَّمٌ. قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: عَشْرَةُ قُرُونٍ).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ،
كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ.

45- قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
الْأُولَى)، وقال تعالى: (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هَمَّ لِلنَّاسِ
آيَةً^ط وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٧٣) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا
بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٨٣) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٩٣) وَلَقَدْ آتَوْا
عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءًا أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتْرُجُونَ
نُشُورًا)، وقال تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (٢١)
وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (٣١) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَحَقَّ وَعِيدِ).

فَفِي سِيرِهِمْ أَحَادِيثٌ وَعِبَرٌ، قَالَ تَعَالَى: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ
وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْبَزَّازُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: مَا أَهْلَكَ اللَّهُ
قَوْمًا بَعْدَآبِ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ الْأَرْضِ، بَعْدَ مَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،
غَيْرَ الْقَرْيَةِ الَّتِي مَسَّخُوا قِرْدَةً، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى».

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَرَفَعَهُ الْبَزَّازُ فِي رِوَايَةٍ لَهُ.

وَالْأَشْبَهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَفَقَهُ.

46- قال تعالى: **(قَتِلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ)؛** يَعْنِي: لُعِنُوا.

وَاخْتَلَفُوا فِي أَهْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مَنْ هُمْ؟ فَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُمْ أَهْلُ فَارِسَ، وَعَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا بِالْيَمَنِ، وَعَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ، وَقِيلَ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «نَاسٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَعَمُوا أَنَّهُ دَانِيَالُ وَأَصْحَابُهُ».

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ قَوْمًا مُؤْمِنِينَ اغْتَزَلُوا النَّاسَ فِي الْفِتْرَةِ، وَإِنَّ جَبَّارًا مِنْ عَبْدِةِ الْأَوْثَانِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الدُّخُولَ فِي دِينِهِ، فَأَبَوْا، فَخَدَّ أَخْدُودًا، وَأَوْقَدَ فِيهِ نَارًا، ثُمَّ خَيَّرَهُمْ بَيْنَ الدُّخُولِ فِي دِينِهِ، وَبَيْنَ الْقَائِهِمْ فِي النَّارِ، فَاخْتَارُوا الْقَاءَهُمْ فِي النَّارِ، عَلَى الرَّجُوعِ عَنْ دِينِهِمْ، فَأَلْقُوا فِي النَّارِ، فَنجَّى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَلْقُوا فِي النَّارِ مِنَ الْحَرِيقِ، بِأَنْ قَبِضَ أَرْوَاحَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ، وَخَرَجَتِ النَّارُ إِلَى مَنْ عَلَى شَفِيرِ الْأَخْدُودِ مِنَ الْكُفَّارِ فَأَحْرَقَتْهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: **«فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ»** فِي الْآخِرَةِ، **«وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ»** فِي الدُّنْيَا.

وَقِصَّةُ غُلَامِ الْأَخْدُودِ رَوَاهَا مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

47- قال تعالى: **(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ**

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)، وَقَالَ تَعَالَى: **(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ).**

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْأَجْيَالَ الْمُهْلَكَةَ وَالْقُرَى الْمُعَذَّبَةَ كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ شُرْكَهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، وَقَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِ بَعْضِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ بِظُلْمِهِمْ.

وَالْأَقْوَامُ السَّابِقَةُ وَالْأُمَّمُ السَّالِفَةُ لَا يُخْصِي عَدَدَهُمْ أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -
وَكَمْ أَهْلَكَ اللَّهُ مِنْ قُرَى، وَأَبَادَ مِنْ أُمَّمٍ، وَأَسْقَطَ مِنْ دُولٍ، فَاسْتَيْقِظُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ،
وَاعْلَمُوا أَنَّ الْإِجْرَامَ يُوجِبُ الْإِنْتِقَامَ، وَالْآثَامَ تَجْلِبُ الْآلَامَ، وَالْعِنَادَ يُهْلِكُ الْعِبَادَ،
وَيُدْمِرُ الْبِلَادَ، وَأَخْبَارُ الْأُولِ عِبْرَةٌ لِلدُّوَلِ.

48- قال تعالى: **(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (١٠٥) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (١٠٥) وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٢٥) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى).**

قِيلَ لِعَادِ بْنِ إِرَمَ الَّذِي أَهْلَكَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ بِالرِّيْحِ: عَادًا الْأُولَى؛ لِأَنَّهَا أَهْلَكَتْ قَبْلَ عَادِ
الْآخِرَةِ، الَّتِي كَانَتْ أَيَّامَ الْعَذَابِ تَسْكُنُ بِمَكَّةَ مَعَ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْعَمَالِقَةِ.

وَكَانَ ابْنُ زَيْدٍ يَقُولُ: «إِنَّمَا قِيلَ لِعَادِ الْأُولَى لِأَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَّمِ هَلَاكًا».

وَكَانَ هَلَاكُ عَادِ الْآخِرَةِ بِبَغْيِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فَتَفَانُوا بِالْقَتْلِ، وَلَمْ يُبْقِ اللَّهُ
ثَمُودَ عَلَى ظُلْمِهِمْ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: «لَمْ يَكُنْ قَبِيلٌ مِنَ النَّاسِ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى مِنْ قَوْمِ نُوحٍ».

وَأَمَّا قَرْيَةُ لُوطٍ فَأَهْوَاهَا مِنَ السَّمَاءِ.

قَالَ قَتَادَةُ: بَلَعْنَا أَذْهُمُ كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ الْقُرْطَبِيُّ: «كَانَتْ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ خَمْسَ قَرْيَاتٍ: «سَدُومٌ»، وَهِيَ الْعُظْمَى،

وَ«صَغْبَةُ»، وَ«صُغُوَّةٌ»، وَ«عِثْرَةٌ»، وَ«دُومًا»، اخْتَمَلَهَا جِبْرِيلُ بِجَنَاحِهِ، ثُمَّ صَعِدَ

بِهَا، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا لَيَسْمَعُونَ نَابِحَةَ كِلَابِهَا، وَأَصْوَاتَ دَجَاجِهَا، ثُمَّ

كَفَّاهَا عَلَى وَجْهِهَا، ثُمَّ أَتْبَعَهَا اللَّهُ بِالْحِجَارَةِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: **(جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا**

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ)، فَأَهْلَكَهَا اللَّهُ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْمُؤْتَفِكَاتِ».

قَالَ مُجَاهِدٌ: «فَلَمْ يُصِبْ قَوْمًا مَّا أَصَابَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ طَمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَ قَرِيَّتَهُمْ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ».

قَالَ السُّدِّيُّ: «ثُمَّ تَتَّبَعَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَتَحَدَّثُ، فَيَأْتِيهِ الْحَجَرُ فَيَقْتُلُهُ».

قال تعالى: **(وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)**؛ أي: وَمَا هَذِهِ الْعُقُوبَةُ مِمَّنْ ضَيَّعَ حَقَّ اللَّهِ بِبَعِيدٍ عَنْهُ.

49- قال تعالى: **(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) (٦١١)** وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ).

فَالطَّامَّةُ أَنَّ أُمَّةً عَدِيدَةً وَقُرَىٰ كَثِيرَةً اخْتَارَتِ الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَايَةِ، وَالشَّقَاوَةَ عَلَى السَّعَادَةِ، وَالْمَعْصِيَةَ عَلَى الطَّاعَةِ، مُسَخِّتٌ عُقُولَهُمْ، وَاسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ النَّاهِيْنَ لَهُمْ الْمُنْكَرِيْنَ عَلَيْهِمْ قَلَّةٌ قَلِيلَةٌ، وَقَدْ نَجَّاهُمْ اللَّهُ مِنْ رِجْزِهِ وَسَخَطِهِ وَعَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَأَهْلَكَ الْمُقِيمِيْنَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، فَالْقِيَامُ بِوَأَجِبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ نَجَاةٌ، وَالْقُعُودُ عَنْهُ هَلَاكَةٌ، قَالَ تَعَالَى: **(لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (٧٨)** كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

50- قال تعالى: **(وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ) (٨٧)** فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ).

فَالْعِبْرَةُ الْعِبْرَةُ، وَالْعِظَّةُ الْعِظَّةُ.

قَالَ قَتَادَةُ: قَوْلُهُ: **(وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)**، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ غَيْضَةٍ. وَكَانَ عَامَّةُ شَجَرِهِمْ هَذَا الدَّوْمُ. وَكَانَ رَسُولُهُمْ فِيَمَا بَلَغْنَا شُعَيْبًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ، أُرْسِلَ إِلَى أُمَّتَيْنِ مِنَ النَّاسِ، وَعُدِّبَتَا بَعْدَ ابْنِ شَتَّى.

أَمَّا أَهْلُ مَدْيَنَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، وَأَمَّا أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ، فَكَانُوا أَهْلَ شَجَرٍ مُتَكَوِسٍ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ سَلَطَ عَلَيْهِمُ الْحَرَّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، لَا يُظَلُّلُهُمْ مِنْهُ ظِلٌّ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَحَابَةً، فَحَلُّوا تَحْتَهَا يَلْتَمِسُونَ الرُّوحَ فِيهَا، فَجَعَلَهَا اللَّهُ

عَلَيْهِمْ عَذَابًا، بَعَثَ عَلَيْهِمْ نَارًا فَاضْطَرَمَّتْ عَلَيْهِمْ فَأَكَلَتْهُمْ، فَذَلِكَ عَذَابُ يَوْمِ
الظُّلَّةِ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

51- قال تعالى: (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٥٨) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا
فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (١٨) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٢٨)
فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ (٣٨) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)، وقال
تعالى: (الْم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
فِي الْبِلَادِ (٨) وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)، وقال تعالى: (وَقَالُوا نَحْنُ
أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ)، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ
وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا)، وقال تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً
مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

فَلَا يَغْتَرَّ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - عَلَى اللَّهِ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُقُوبَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ لَا يَرُدُّهُ قُوَّةٌ، وَلَا
تَمْنَعُهُ مَكَانَةٌ، وَلَا يُوقِفُهُ حَسَبٌ، وَلَا نَسَبٌ، وَلَا مَالٌ، وَلَا أَوْلَادٌ.

52- قال تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا
لِّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ..) الآيات.

أَفْسَدَ بَنُوا إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ بِالذُّنُوبِ الْكَثِيرَةِ، وَالْآثَامِ الْكَبِيرَةِ، وَالْعِضْيَانِ وَالطُّغْيَانِ،
وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ وَعُلَمَاءَ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ قَتَلَ عُلَمَاءَهُمْ، وَأَذَلَّ أَشْرَافَهُمْ، وَأَسَرَ
كُبْرَاءَهُمْ، وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ، وَتَمَلَّكَ بِلَادَهُمْ، وَاسْتَبَاحَ بَيْضَتَهُمْ، وَسَلَكَوا بَيْنَ دُورِهِمْ
وَبُيُوتِهِمْ لَا يَخَافُونَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ: سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جَالُوتَ وَجُنُودَهُ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَغَيْرِهِ: أَنَّهُ بَخْتُنَصْرُ مَلِكِ بَابِلَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: ظَهَرَ بَخْتُنَصْرُ عَلَى الشَّامِ، فَحَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَقَتَلَهُمْ، ثُمَّ أَتَى دِمَشْقَ فَوَجَدَ بِهَا دَمًا يَغْلِي عَلَى كِبَا، فَسَأَلَهُمْ: مَا هَذَا الدَّمُ؟ فَقَالُوا: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذَا، وَكُلَّمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ الْكِبَا ظَهَرَ. قَالَ: فَقَتَلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَسَكَنَ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: صَحِيحٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ.

53- قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) (٧٦) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَحْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكُمْ وَكَيْلًا (٨٦) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا).

كَانَ كُفَّارٌ قَرِيشِي يُشْرِكُونَ فِي الرِّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشَّدَّةِ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ وَتَهَدَّدَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّ الَّذِي تَخَافُونَ أَنْ يُهْلِكَكُمْ فِي الْبَحْرِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُهْلِكَكُمْ فِي الْبَرِّ، أَوْ يَرُدَّكُمْ إِلَى الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَيُهْلِكَكُمْ فِيهِ، فَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - مَتَى شَاءَ عَاقَبَكُمْ عَلَى ذُنُوبِكُمْ بِالْحَسْفِ وَالْقَصْفِ، فَبِيَدِهِ أَنْ يُمَطِّرَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارَةً، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ الرِّيحَ تَحْمِلُ الْحَصْبَاءَ، فَيَقْتُلُكُمْ الْحَصَى، فَتَهْلِكُونَ فِي الْبَرِّ، أَوْ يُرْجِعْكُمْ لِلْبَحْرِ وَيُسَيِّرَ عَلَيْكُمْ الرِّيحَ الَّتِي تَكْسِرُ مَرَاجِبَكُمْ وَتُغْرِقُكُمْ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا؛ فَإِنَّ قُلُوبًا لَا تَعِي هَذَا الْوَعِيدَ لَمَيَّتَةً، وَإِنَّ عُقُولًا لَا تُدْرِكُ هَذَا التَّهْدِيدَ لَمُنْعَفِنَةً.

54- قال تعالى: **(أَوْلَمْ يَهْدِلَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ).**

آيَاتُ اللَّهِ فِي الْمُهْلَكِينَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ وَاضِحَةٌ بَيِّنَةٌ، ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، وَكَتَبَ عَنْهُمْ أَهْلُ التَّارِيخِ وَمَنْ أَلَّفَ فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ اشْتَعَلَ فِي التَّنْقِيبِ عَنِ الْآثَارِ.

وَبَعْضُ تِلْكَ الْقُرَى أَثَرُهَا ظَاهِرٌ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَعَالِمُ بِلَادِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ مَوْجُودَةٌ، فَكُلُّ ذَلِكَ نَاطِقٌ بِسُنَّةِ اللَّهِ فِي إِهْلَاكِهِ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، وَالْقُرَى الْمُعَانِدَةَ، أَفَلَا يَعِي ذَلِكَ كُفَّارٌ فُرِيشٍ فَيَتَّعِظُوا وَيَنْزَجِرُوا عَنْ ظُلْمِهِمْ وَأَثَامِهِمْ!؟

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَبِرُوا وَيَنْتَهُوا.

55- قال تعالى: **(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَمُ الْغَالِبُونَ).**

فَالْعَجَبُ مِنْ عُقُولِ الظَّالِمِينَ وَعُيُونِ الْمُفْسِدِينَ أَنَّهَا مُعْطَلَةٌ عَنِ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْوَاقِعِ، الْمَاضِي مِنْهُ وَالْحَاضِرُ، فَقَدْ أُبِيدَتْ أُمَّمٌ، وَعُذِّبَتْ دُولٌ، وَأَهْلِكَتْ قُرَى وَأَقْوَامٌ، وَفُتِحَتْ مَدَائِنٌ، وَسَقَطَتْ عُرُوشٌ، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَشُؤْمِ مَعَاصِيهِمْ، فَاللَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا يُمְهَلُ وَلَا يُهْمَلُ، وَمِنَ الْعُقُوبَاتِ الْعَاجِلَةِ وَالْأَمْرَاضِ

الْمُسْتَعْصِيَةِ الْاِغْتِرَارُ بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ وَإِمْلَائِهِ لِلْقُرَى، قَالَ تَعَالَى: **(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ**

حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) (٢٨١) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ، وَمِنَ الْاِسْتِدْرَاجِ وَالْإِمْلَاءِ سَعَةٌ

الْأَرْزَاقِ وَكَثْرَةُ النِّعَمِ مَعَ الْإِقَامَةِ عَلَى الذُّنُوبِ، قَالَ تَعَالَى: **(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا**

بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

مُبْلِسُونَ).

56- قال تعالى: **(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٨٠٢) ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ).**

فَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - مِنْ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ وَلُطْفِهِ بِبِلَادِهِ، أَنَّهُ لَا يُهْلِكُ الظَّالِمِينَ وَيُعَذِّبُ الْمُذْنِبِينَ إِلَّا بَعْدَ الإِعْذَارِ وَالإِنذَارِ، وَالإِزْسَالِ وَالإِمْهَالِ، وَبَعَثَ الأنْبِيَاءَ والرُّسُلَ، وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أُنذِرَ، فَلَمْ يُعَذِّبْ بِالإِشْهَادِ وَالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى بَنِي آدَمَ يَوْمَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنَ الأَصْلَابِ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَالْهَهُمُ الوَاحِدُ، وَلَا بِفِطْرَةِ الإِسْلَامِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ مَعَ ذَلِكَ آيَاتٍ وَعِبْرًا، وَمَوَاعِظَ شَاهِدَاتٍ بِتَوْحِيدِهِ، وَصَدَقَ رُسُلُهُ، وَأَهْلَكَ أُمَّمًا وَقُرَى بِالْعَذَابِ، آيَةً يَرَاهَا الْمُعَاصِرُونَ لَهَا، وَالْمَارُونَ عَلَيْهَا، وَالسَّامِعُونَ بِهَا؛ وَلِذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ بَعْدَ كُلِّ إِهْلَاكِ: **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ).**

57- قال تعالى: **(فَأَخْرَجْنَا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٧٥) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٨٥) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ).**

أَخْرَجَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مِنَ النَّعِيمِ إِلَى الجَحِيمِ، وَمِنْ مَلَأَ الدُّنْيَا إِلَى الآمِ وَأَوْجَاعِ الآخِرَةِ، عِقَابٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ فِي الآخِرَةِ، هَذَا جَزَاءُ الظَّالِمِينَ الْمُذْنِبِينَ العَاصِينَ، خَسِرُوا دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ.

وَنَعِيمُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: **(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَبُّهُمُ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)،** وَقَالَ تَعَالَى: **(وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي**

ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيْبَدِّلَهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

58- قال تعالى: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ
- إلى قوله تعالى - فتلک بیوتیہم حاویة بما ظلموا إن فی ذلک لآیة لِّقوم یعلمون)
فَأَفْسَادُ كُفْرَاءٍ وَرُؤْسَاءِ قَرْيَةٍ تَمُودَ، وَأَنْسِيَاقُ النَّاسِ إِلَى رَأْيِهِمْ وَتَدْبِيرِهِمْ، جَرَّ لَهُمْ
الْوَيْلَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ الْمُهْلِكَاتِ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْقُرَى الظَّالِمَةِ العَاصِيَةِ، وَعِقَابُ
اللَّهِ وَعَذَابُهُ أَشْكَالٌ وَأَلْوَانٌ، فَمِنْهُ الحِيسِيُّ وَالْمَعْدَنِيُّ، وَمِنْهُ الظَّاهِرُ وَالخَفِيُّ، وَحَالَ
المُفْسِدِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١٠٢) فَيَأْتِيَهُمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فيقولوا هل نحن منظرُونَ).

فَالْعُقُوبَةُ عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقُرْآنِ، وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، وَخَرَّبَ فِي الْبِلَادِ، لَا
تُؤْمِنُ، فَإِنِّيَأْنَهَا بَغْتَةً، وَنُزُولُهَا فَجَاءَةً، قَالَ تَعَالَى: (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ
أَنْ يَحْصِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٥٤) أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَاهُمْ بِمُعْجِزِينَ (٦٤) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ).

59- قال تعالى: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ
الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ - إلى قوله تعالى - أَوْلَمْ يَعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ
عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ). وقال تعالى: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ

فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ).

قَالَ - جَلَّ وَعَلَا - لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَالْأُمَّمُ الْمُهْلَكَةُ، وَالْقُرَى الْمُعَذَّبَةُ، وَالْأَشْخَاصُ الْمُعَاقَبُونَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، فِيهِمْ أَهْلُ قُوَّةٍ وَبَأْسٍ شَدِيدٍ، أَقْوِيَاءُ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَثِقَاتِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهَذِهِ بَيُوتُهُمُ الْمَنْحُوتَةُ فِي الْجِبَالِ، وَأَهْرَامَاتُهُمُ الشَّاهِقَةُ، وَكُنُوزُهُمُ الْكَثِيرَةُ، لَا تَرَالُ مَوْجُودَةً عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَالذُّهُورِ، لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ، فَالَّذِي يُنَجِّي مِنَ عَذَابِ اللَّهِ بَعْدَ رَحْمَتِهِ هُوَ الْإِيمَانُ بِهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.

-60 قال تعالى: **(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٧٩) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ).**

لَقَدْ أَنْقَذَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مِنْ نِيرَانِهِمْ، وَأَذَلَّهُمْ، وَأَخْرَاهُمْ، وَأَهْلَكَ مَلِكَهُمُ النَّمْرُودَ الطَّاغِيَةَ مَلِكَ بَابِلَ.

قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ: هُوَ أَوَّلُ مَلِكٍ تَجَبَّرَ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ صَاحِبُ الصَّرْحِ بِبَابِلَ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «الْمَلِكُ الْمَشْهُورُ، الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ مَلَكَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ فِي غَايَةِ الْغَشْمِ وَالظُّلْمِ».

قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: «أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ الْبَعُوضِ بِحَيْثُ لَمْ يَرَوْا عَيْنَ الشَّمْسِ، وَسَلَطَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَكَلَتْ لُحُومَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ، وَتَرَكَتْهُمْ عِظَامًا بَادِيَةً، وَدَخَلَتْ وَاحِدَةً مِنْهَا فِي مَنْخَرِي الْمَلِكِ فَمَكَثَتْ فِي مَنْخَرِيهِ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ، عَذَّبَهُ اللَّهُ بِهَا، فَكَانَ يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِالْمَرَازِبِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ كُلِّهَا، حَتَّى أَهْلَكَهُ اللَّهُ بِهَا».

61- قال تعالى: **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُّشْرِكِينَ).**

وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِمَّن اسْتَسَادِ الْجَهْلِ وَالِاسْتِكْبَارِ مَعَ إِسْأَالِ الرُّسُلِ وَالنُّذُرِ.
فَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «قَالَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : «يَا سَارَةَ: لَيْسَ عَلَيَّ وَجْهِ
الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ». وَقَالَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَنْ قَرْيَةِ لُوطٍ: **(فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) (٦٣)** وَتَرَكَ نَافِيَهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ
الْأَلِيمِ). قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «جَعَلْنَا مَحَلَّتَهُمْ بَحِيرَةً مُّنبِتَةً خَبِيثَةً»، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ
حَدِيثٌ: **(عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ
وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)**، فَالْعَجَبُ كَيْفَ فَضَّلُوا الْكُفْرَ وَاخْتَارُوهُ عَلَيَّ
الْإِيمَانَ؟!، فَصَدَقَ اللَّهُ: **(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ)** أَيْعَقُلُ أَنَّ الْأَصْنَامَ الصَّمَاءَ وَالْجَمَادَاتِ
الْبَكْمَاءَ شَغَفَتْ قُلُوبَ الْجَهْلَةِ أَمْ هُوَ التَّضْلِيلُ وَالِاسْتِعْبَادُ وَالِاسْتِخْفَافُ بِالْعُقُولِ؟
وقال تعالى: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ) (٥٣)** رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ).

62- قال تعالى: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ).**

اللَّبِيبُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُرْسِلِ الرُّسُلَ وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ عَبَثًا؛ بَلْ لِدَعْوَةِ النَّاسِ
إِلَى عِبَادَتِهِ وَخَدِّهِ، وَطَاعَتِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَأَنَّ الْمُخَالَفِينَ الْمُجْرِمِينَ الْمُفْسِدِينَ
فِي الْأَرْضِ يَسْتَحِقُّونَ الْعِقَابَ، وَيَسْتَأْهِلُونَ الْعَذَابَ، وَأَنَّ الْأُمَّمَ وَالْقُرَى الْمُهْلِكَةَ كَانَتْ
اسْتِنصَالُهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ.

قال تعالى: (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

63- قال تعالى: (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) (٣٢١) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (٤٢١) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (٥٢١) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٦٢١) فَكَذَّبُوه فَأْتَاهُمُ لَمُحْضَرُونَ (٧٢١) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ).

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: إِلْيَاسُ هُوَ إِدْرِيسُ.

قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِيهِ: «هُوَ إِلْيَاسُ بْنُ يَاسِينَ، بَعَثَهُ اللَّهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ حِزْقِيلَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانُوا قَدْ عَبَدُوا صَنَمًا يُقَالُ لَهُ: «بَعْلٌ»، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ.

وَكَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ مَلِكُهُمْ ثُمَّ ارْتَدَّ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَدَعَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَحَبِسَ عَنْهُمْ الْقَطْرَ ثَلَاثَ سِنِينَ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَكْشِفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَوَعَدُوهُ الْإِيمَانَ بِهِ إِنْ هُمْ أَصَابَهُمُ الْمَطَرُ، فَدَعَا اللَّهُ لَهُمْ، فَجَاءَهُمُ الْغَيْثُ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى أَخْبَثِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَقْبِضَهُ إِلَيْهِ».

فَمَنْ تَأَمَّلَ فِي أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ عَنِ الْأَمَمِ الْمُهْلَكَةِ وَالْقُرَى الْمُعَذَّبَةِ عَلَى كُفْرِهَا؛ عَرَفَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، أَنْ جَعَلَهُ مُؤْمِنًا مُوَحِّدًا.

64- قال تعالى: **(أَمْ خَيْرٌ أُمَّةٌ قَوْمٌ تُتَّبَعُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ).**

هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٍ؛ أَي: إِنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ مُسْتَحِقُّونَ الْعَذَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، إِذْ لَيْسُوا خَيْرًا مِنْ قَوْمٍ تُتَّبَعُ وَالْأُمَّةِ الْمُهْلَكَةِ، وَإِذَا أَهْلَكْنَا أَوْلِيكَ لِظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ فَكَذًا هَؤُلَاءِ. وَقَدْ اشْتَهَرَ تَبَعُ هَذَا، وَإِلَّا فَإِنَّ التَّبَاعَةَ هُمْ مُلُوكُ الْيَمَنِ، وَاحِدُهُمْ تَبَعٌ، كَمَا يُقَالُ: خَلِيفَةٌ لِمَنْ أَقَامَ الشَّرِيعَةَ وَعَدَلَ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَكِسْرَى لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وَقَيْصَرَ لِمَنْ مَلَكَ الرُّومَ، وَفِرْعَوْنَ لِمَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِيَّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنِ قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ تَبَعٌ رَجُلًا صَالِحًا. وَقَالَ كَعْبٌ: ذَمَّ اللَّهُ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّهُ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قَوْمٌ تُتَّبَعُ - وَهُمْ سَبَأٌ - فَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ، وَشَرَدَهُمْ فِي الْبِلَادِ، وَفَرَّقَهُمْ شَدَرَ مَذَرَ.

وَقَالَ: فَإِنَّ تَبَعًا هَذَا الْمُشَارَ إِلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ أَسْلَمَ قَوْمُهُ عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ عَادُوا بَعْدَهُ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْبَيْرَانَ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا ذَكَرَهُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ.

65- قال تعالى: **(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ).**

ذَكَرَ اللَّهُ الْقَوِيَّ الْعَظِيمُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ظَلَمَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمُجْرِمِيهَا، بِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَهْلَكَ أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي عُدِّبَتْ، وَالْقُرَى الَّتِي عُوْقِبَتْ، وَالْأَقْوَامَ الَّتِي أُبِيدَتْ عَلَى رَغَمِ قُوَّتِهَا وَجَبَرُوتِهَا، قَالَ تَعَالَى: **(فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً).**

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ قَوْمٍ عَادٍ لِيَتَّخِذَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ حِجَارَةٍ، لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا خَمْسُمِائَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَحْمِلُوهَا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَمَعَ هَذِهِ الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ. قَالَ تَعَالَى: (وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)، فَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يَتَذَكَّرُ؟.

66- قَالَ تَعَالَى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا).

فَاللَّبِيبُ يَنْظُرُ بِطَرْفِهِ، وَيَتَأَمَّلُ بِقَلْبِهِ، وَيَتَفَكَّرُ بِعَقْلِهِ فِي نَهَايَةِ الْأُمَمِ وَالْقُرَى، وَمَا جَرَّتْ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ، مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَعِقَابٍ عَمِيمٍ، دَمَّرَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ وَاسْتَأْصَلَهُمْ.

وَقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ مُشْرِكِي مَكَّةَ فَقَالَ: «وَاللَّكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا»؛ أَي: أَمْثَالُ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ التَّدْمِيرِيَّةِ الْإِبَادِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرٌ نَابِلٌ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٥٢) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي مَآئِنِ مَكَانِكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).